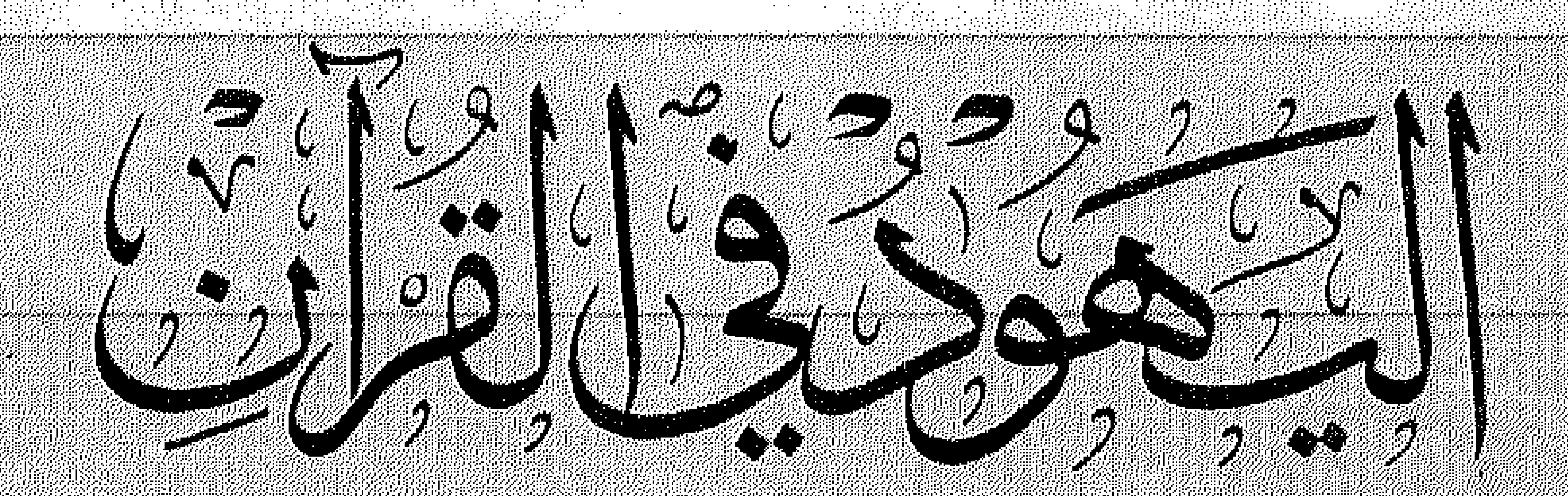
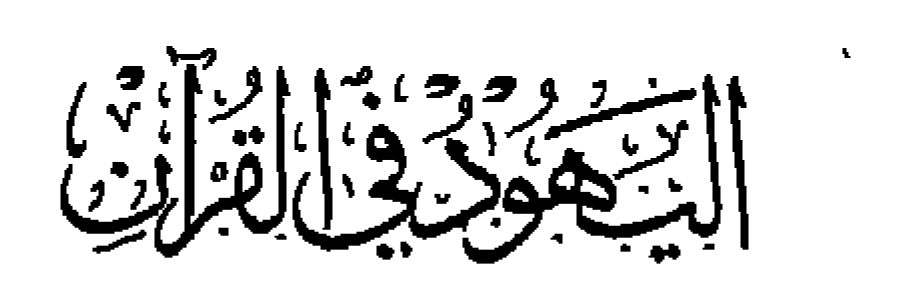
المكتبة القرآنية



الدكتور
محمود بن الشريف

دار ومكتبة الهلال


اليهود في القرآن

الطبعة الثانية ١٩٨٦م

الادارة العامة ـ بيروت ص . ب = ٥٠٠٣ / ١٥

المكتبة القرآنية
٦

اليهود في القرآن

الدكتور محمود بن الشريف

منشورات
دار ومكتبة الهلال
بيروت - لبنان

﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى؛ ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً، وأنهم لا يستكبرون﴾

قرآن كريم
(سورة المائدة آية ٨٢)

تمهيد

من الأمور التي لا خلاف فيها أن اليهودية دين سماوي مقدس...

وأن عقيدة اليهود الأصلية الأصيلة عقيدة إلٓهية مقدسة، وأنهم أصحاب كتاب منزل من عند الله...

ويحدثنا التاريخ الديني أن اليهود من سلالة «يهودا» بن يعقوب عليه السلام، وأن يعقوب كان يطلق عليه إسم «إسرائيل»؛ لذا يسمون «ببني إسرائيل»، كما يسمون أيضاً «بالعبريين»؛ لأنهم[1] كانوا في الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التي لا تستقر في مكان، بل ترحل من بقعة إلى أخرى بإبلها وماشيتها للبحث عن الماء والمرعى، وكلمة «عبري» في الأصل مشتقة من الفعل الثلاثي «عبر» بمعنى قطع مرحلة من الطريق، أو عبر الوادي أو النهر من عبر إلى عبر، أو عبر السبيل شقها.

---

(١) ص ٣٠ من كتاب «اليهودية» للدكتور أحمد شلبي.

وكل هذه المعاني موجودة في هذا الفعل سواء في العربية أو العبرية، وهي في مجملها تدل على التحول والتنقل الذي هو من أخص ما يتصف به سكان الصحراء وأهل البادية؛ فكلمة «عبري» مثل كلمة «بدوي» أي: ساكن الصحراء أو البادية، وقد كان المصريون والكنعانيون (الشاميون) يسمون بني إسرائيل «بالعبرانيين» لعلاقتهم بالصحراء، وليميزوهم عن أهل العمران. ولما استوطن بنو إسرائيل أرض كنعان وعرفوا المدنية والاستقرار صاروا ينفرون من كلمة «عبري» التي كانت تذكرهم بحياتهم الأولى: حياة البداوة والخشونة، وأصبحوا يؤثرون أن يعرفوا ببني إسرائيل فقط.

ولا خلاف أيضاً في أن الله سبحانه أكرمهم، وحباهم، وخصهم بمزيد من النعم والتكريم، وفضلهم على كثير من العالمين من أهل زمانهم، وأرسل إليهم رسلاً عديدين، وأنزل لهم التوراة على موسى فيها هدى ونور وأنزل لهم الإنجيل على آخر رسول أرسل إليهم، وهو عيسى عليه السلام. كل ذلك من الأمور التي حدثنا عنها القرآن بالنسبة لهم،

كذلك حدثنا القرآن عنهم أنهم لم يستقيموا على الطريقة، ولم يتبعوا النور الذي أنزل إليهم، وأنهم انحرفوا عن الطريق، وحرّفوا التوراة وبدلوا من تعاليمها، وتغالوا في عداواتهم، واغتالوا عديداً من أنبيائهم، ومالوا عن الحق، وحادوا عن الجادة، وصدوا عن دين الله فلا جرم أن كتب الله عليهم التيه والتشريد وضرب عليهم الذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله... وفي الصفحات التالية حديث القرآن عن التوراة، وعن أهلها وعن نفسياتهم وسلوكهم ومزاعمهم وعن مسراهم عبر التاريخ وقبل نزول القرآن وعن مؤامراتهم ومناوراتهم إبان بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

١ ـ اليهود عبر التاريخ

في العالم القديم... وقبل ميلاد المسيح بسنوات جاوزت الألفين فتحت الصحراء في شبه جزيرة العرب نيرانها على عديد من القبائل والجماعات العربية التي طاردها القحط والجدب، فلم تجد الكلأ والعشب، ولا لماء ولا الغذاء، وساقتها قسوة الحياة وشظف العيش إلى الرحيل... والهجرة، فهاجرت وهجرت: هجرت مسقط رأسها في شبه الجزيرة العربية، وهاجرت تبتغي أن تجد في مهجرها كلأ ومنتجعاً... وزاداً وظلالاً... هجرت الصحراء وولت وجهها شطر الماء... شطر البحر المتوسط... على شاطئه القريب من مصر... ومن جزيرة «كريت» تنعم بالشبع والري والنسمة الرقيقة الرفيقة والعيشة الراضية.

وكانت قبيلة «الفينيقيين» من هامة القبائل التي لم تكتف باستقرارها على شاطىء البحر (لبنان الآن) بل ركبت البحر سائحة أو متاجرة...

وكما استقرت هذه القبيلة العربية على ضفة البحر المتوسط كذلك استقرت قبيلة «كنعان» العربية على ضفة نهر الأردن الغربية.

وكانت بلاد العرب الوسطى والشمالية مهد الساميين، و «سام» هو الجد الأعلى الذي تنتسب إليه هذه القبائل جميعها، والساميون الذين بقوا في بلاد العرب هم أجداد الشعب العربي، وقد ترك كثير من هذه القبائل أيضاً جزيرة العرب إلى بلاد بابل وأشور (العراق الآن).

واليهود، أو بنو إسرائيل، أو العبرانيون، كما يطلق عليهم «ساميون» وهنا قد تبدو علامة استفهام ضخمة وتساؤل كبير مصحوب بالدهشة، فما دام العرب واليهود من سلالة واحدة، وما دام التاريخ سجل أن العرب واليهود أبناء عمومة؛ إذ هم من نسل يعقوب بن إسحق، والعرب من نسل إسماعيل، وإسحق وإسماعيل أخوان وأولادهما أبناء عم، فإلام الخلف بينهما، وعلام المناجزة والشقاق؟.

وعن هذا التساؤل يجيب الدكتور جمال حمدان في

كتابه «اليهود انثروبولوجيا» فيقول في صفحة ٩١ من هذا الكتاب:

«قد يكون يهود التوراة والعرب أبناء عمومة ـ وإنما تاريخياً فحسب، حين بدأ الكل قبائل مختلفة من الساميين الشماليين، وحين كانت العبرية لغة تشتق من الأصول العليا التي تفرعت عنها العربية، وقد يكون من الصحيح، بل انه لصحيح بالفعل أن إسماعيل أبا العرب وإسحق أبا اليهود اخوة غير أشقاء وكلاهما ابن إبراهيم ولكن في البداية فقط تصدق هذه الأخوة على تسليمها، أما بعد ذلك فقد ذاب نسل أحدهما في دماء غريبة، ووصل الذوبان إلى حد الإحلال، حتى أصبحنا ازاء قوم غرباء لا علاقة لهم البتة بإسحق فضلاً عن إسماعيل. ولا يمكن بعد أن اختفى يهود التوراة كشبح أن يكون يهود أوربا والعالم الجديد أقارب العرب جنسياً أكثر من قرابة الأوربيين والأمريكيين للعرب!!.

إن اليهود اليوم إنما هم أقارب الأوربيين والأمريكيين، بل هم في الأعم الأغلب بعض وجزء

منهم وشريحة لحماً ودماً، وإن اختلف الدين، ومن هنا فإن اليهود في أوربا وأمريكا ليسوا كما يدعون غرباء أو أجانب دخلاء يعيشون في المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت، وإنما هم من صميم أصحاب البيت نسلاً وسلالة، لا يفرقهم عنهم سوى الدين. أما أين يمكن أن يكون اليهود غرباء في منفى، ودخلاء بلا جذور، فذاك في بيت العرب وحده، في فلسطين حيث لا يمكن لوجودهم إلا أن يكون استعماراً واغتصاباً بالقهر والابتزاز».

٢ - إسرائيل . . وأبناؤه

كان يعقوب (إسرائيل) يقيم في أرض كنعان (الشام) وقد أنجب من الولد إثنى عشر ولداً، وهم: يوسف - بنيامين - شمعون - روابين - ليفي - يهودا - يساكر - زبولون - دان - نفتالي - جاد - أشير، هؤلاء هم أولاد يعقوب المعبر عنهم في القرآن بالأسباط، وقد اعترف القرآن بهؤلاء الأولاد إجمالاً، يقول متحدثاً عن الأسباط داعياً المؤمنين إلى الإيمان بهم وبأنبيائهم: ﴿**قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا، وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط**﴾[١].

أما تفسير الجلالين فانه يقول[٢]: «والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب من بني إسماعيل، فأسباط بني إسرائيل هم: قبائلهم» تلك القبائل المتناسلة من هؤلاء الأبناء الإثني عشر، ويؤيده في

(١) من الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

(٢) جـ ١ ص ١١١.

هذا الاتجاه قول الله عنهم[1]: ﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً﴾

وعلى هذا يكون المراد بالأسباط في تلك الآية الأولى «أنبياء قبائل الأسباط».

ويقول البعض أن هؤلاء الأبناء الإثني عشر كانوا جميعاً أنبياء، مستدلاً بقول الله تعالى الذي يتضمن ذلك: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان﴾[2].

على أن القرآن لم يعترف صراحة إلا بنبوة واحد منهم، وهو «يوسف» عليه السلام، يقول القرآن مخاطباً يوسف: ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق إن ربك عليم حكيم﴾[3].

---

(١) من الآية ١٦٠ من سورة الأعراف.
(٢) من الآية ١٦٣ من سورة النساء
(٣) الآية ٦ من سورة يوسف.

وليوسف في القرآن سورة، صورت في براعة وتحليل ودقة وعمق حياته، ومنزلته عند والده يعقوب وموقف إخوته منه، وحسدهم له، وحقدهم عليه وتآمرهم به، وقدومه إلى مصر، وحفاظه على طهره، وإخلاصه لرئيسه، واعتقاله وسجنه، ثم توليه وزارة التموين في مصر إبان المجاعة التي حدثت في عهده بمصر والشام، كما تحدثت عن قدوم أولاد يعقوب إلى مصر لشراء قوت لأهاليهم، والتقاء يوسف بأخوته ودعوته لهم للإقامة بمصر، شد يعقوب وآله أجمعون رحالهم إلى مصر فلما جاءوا إليها دخلوا على يوسف فآوى إليه أبويه، وقال لأبيه: «يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجعلني على خزائن الأرض، بيدي الحل والعقد وإليَّ الأمر والنهي، وجاء بكم من البدو بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي وهذا كله من لطف الله بي وبكم أن ربي لطيف لما يشاء وهو الحكيم العليم»[1].

* * *

(١) ص ١٣٧ من كتاب قصص الأنبياء، للشيخ عبد الوهاب النجار.

وقد استقر بنو إسرائيل بمصر من ذلك العهد قرابة ثلاثة قرون إلى أن خرج بهم سيدنا موسى إلى صحراء سيناء. وقد ردد البعض: أن هذه الهجرة أي هجرة إسرائيل وأولاده التي كانت في عهد يوسف إلى مصر ـ تعد الهجرة الثانية، بالنسبة للهجرات اليهودية، أما الهجرة الأولى فهي التي قام بها إبراهيم سنة ٢٠٠٠ ق. م. من بابل (العراق) إلى أرض الشام ومصر، معتبرين أن إبراهيم هو أساس للفرق اليهودية. والحق، أن هذه الدعوى ـ دعوى أن إبراهيم أبو اليهودية ـ ليست وليدة اليوم، بل نادى بها الإسرائيليون من قبل، وندد بها القرآن وفندها، فقال: **﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون، ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾**[1] «إن إبراهيم ﷺ إنما عاش قبل التوراة، واليهودية إنما بدأ عهدها بعد

(١) الآيات ٦٥/٦٦/٦٧ من سورة آل عمران.

التوراة، وأن ملة إبراهيم ـ والحالة هذه ـ لا يمكن أن تكون اليهودية، وأن دعوى اليهود في ذلك باطلة من أساسها وأن أبوة إبراهيم لليهود ليس من شأنها أن تجعله على ملتهم»[1].

---

(١) ص ٦٩ من كتاب سيرة الرسول لعزة دروزة

٣ ـ بنو إسرائيل . . وموسى

«. . . وظلت سلالات بني إسرائيل بمصر، حيناً من الدهر، تنعم بكرم المصريين ورعايتهم وتقديرهم لجهودهم وكفاياتهم، حتى لقد وصل كثير منهم إلى أعلى الدرجات والمناصب، ثم تغير موقف المصريين منهم فيما بعد إلى نقيض ما كان عليه؛ لخشيتهم من تكاثر عددهم الذي زاد على عدد المصريين أنفسهم، ومن استفحال نفوذهم في البلاد، فأصبحوا موضع مقتهم واضطهادهم، يسومونهم سوء العذاب، يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، ويتخذون منهم خدماً وعبيداً ويسخرونهم في أشق الأعمال. وبقي بنو إسرائيل أمداً طويلاً يرزحون تحت نير هذا الاستعباد، وتنوشهم معاول هذه الإبادة، حتى أرسل الله إليهم وإلى فرعون وقومه رسولين إسرائيليين من نسل (ليفي) أحد أبناء يعقوب، هما: موسى وأخوه هارون عليهما السلام، يبلغانهم رسالة التوحيد ويدعوانهم إلى عبادة الله وحده، وترك ما هم عليه من عبادة الأوثان والكواكب وأرواح الموتى والملوك

والحيوان والنبات، ويقدمان لهم شريعة سماوية سمحة، هي الديانة اليهودية تفصل ما ينبغي أن يكونوا عليه في شؤون دينهم ودنياهم، فآمن بهما بنو إسرائيل وكذّب بهما فرعون وقومه إلا قليلاً»[1].

في قصر فرعون تربى موسى، ولبث من عمره سنين في ذلك البيت الملكي وبين آله وحاشيته...

وأوحى الله إلى موسى وأخيه هارون: ﴿**وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين، قوم فرعون ألا يتقون**﴾[2] ﴿**وقال موسى يا فرعون اني رسول من رب العالمين، حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل**﴾[3] ﴿**إذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري اذهبا إلى فرعون...**﴾[4].

وسخر فرعون من موسى وأخيه هارون، وتجاهل الدعوة وادعى هو الألوهية .. وتمادى في إيذاء

---

(١) ص ٧ من كتاب الأسفار المقدسة للدكتور وافي.

(٢) الآيتان ١١/١٠ من سورة الشعراء

(٣) الآيتان ١٠٥/١٠٤ من سورة الأعراف.

(٤) سورة طه الآيتان ٤٣/٤٢.

الاسرائيليين الذين لم يجدوا لهم ملاذاً يشكون إليه . . إلا موسى ﴿**قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون**﴾[1].

وأمر الله موسى، ومن آمن معه من إسرائيليين ومصريين بالهجرة من مصر إلى فلسطين: ﴿**ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى**﴾[2] «ندم فرعون على إرسال بني اسرائيل ولعله قد بلغه ما فعله اليهوديات بالمصريات من استعارة الحلى والزينة وعدم ردها إليهن فأرسل في المدائن حاشرين وجمع جنداً عظيماً واتبع بني إسرائيل؛ ليردهم إلى عبوديته، وكان بنو إسرائيل قد بلغوا ساحل البحر الأحمر ـ على خليج السويس ـ واطلع عليهم، مع شروق الشمس، فأيقنوا بالهلاك وأن فرعون باطش بهم، فسكن موسى روعهم وضرب البحر، كما أمره الله، فانفلق حتى ظهرت أرضه،

---

(١) الآية ١٢٩ من سورة الاعراف.

(٢) الآية ٧٧ من سورة طه.

وأمر بني إسرائيل بالعبور فيه، فعبروا من الشاطىء الغربي إلى الشاطىءالشرقي، وأشرف في ذلك الحين فرعون على الموضع الذي عبر منه بنو إسرائيل، فرأى طريقاً في البحر لا وعورة فيه وبني إسرائيل بين فرقي الماء لم يمسهم أذى، فطمع أن يعبر في أثرهم فيردهم هو وجنوده فاقتحموا الطريق اليابس في البحر خلف بني إسرائيل فلما جاز بنو إسرائيل البحر، ولم يبق أحد منهم بين المياه المنحسرة، وفرعون قد توسط البحر هو وجنوده انطبق البحر عليهم وعاد كما كان أولاً وغرق فرعون وجنوده. . .»[1].

---

(١)ص ٢٠٠ من كتاب قصص الأنبياء.

٤ ـ بنو إسرائيل .. وموسى في سيناء

« وبعد أن رأى الاسرائيليون بأعينهم جهاراً نهاراً تأييد الله لموسى بالمعجزات، ورأوا كيف شقّ الله البحر لهم، فعبروه إلى حيث لا هضم ولا ضيم، وإلى حيث المنطلق إلى الحرية العقيدية والعبادة والشكر، والنفس الخيرة إزاء هذا كله تخضع وتذعن وتشكر الله، لما أفاء عليها من سيب وعطاء. غير أن الاسرائيليين، مع هذا كله، تعنتوا وتدللوا وتمردوا.. وتغالوا في مطالبهم وتساؤلاتهم.. وكانت كلما أصابتهم شدة أو نزل بهم ضيق أو ألم بهم من الضر شيء ولو يسير تتغلب عليهم طبيعتهم المادية وروحهم الخبيثة فيندفعون إلى موسى يمنون عليه أن آمنوا، وأن خرجوا معه من مصر..

ويقابل موسى صنيعهم بالتوجيه الجميل والارشاد الجليل والعلاج والتوجه إلى ربه سائلاً إياه أن يحقق لهم ما سألوه.

مغالاة .. وتساؤل:

وفي سيناء مر الاسرائيليون على قوم يعبدون أصناماً، وكم كانت دهشة موسى حينما طلب منه الاسرائيليون أن يتخذ لهم إلهاً من هذه الأوثان، كما لهؤلاء القوم، يعكفون على تقديسه ويقيمون على عبادته، وبهت موسى .. وأنحى باللائمة عليهم ورماهم بالعته والجهل، ثم ذكرهم بنعم الله وأفضاله عليهم ليعكفوا على عبادته وحده: ﴿**وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال انكم قوم تجهلون، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون، قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين**﴾(١).

وساروا في سيناء ولذعتهم شمسها، وحاولوا اتقاءها فلم يجدوا شجراً يتفيأون ظلاله ويستظلون تحت فروعه، ولم يجدوا مباني مهيأة أو مساكن ينزلون فيها .. فشكوا إلى موسى، فدعا ربه، فساق لهم

---

(١) الآيات ١٣٨/١٣٩/١٤٠ من سورة الأعراف.

الغمام يعلو رؤوسهم ويقيهم وهج الشمس وسعير الحر: ﴿**وظللنا عليكم الغمام**﴾[1].

وفي الصحراء، أيضاً، أصابهم ظمأ فتفقدوا الماء، ولما أعوزهم الماء لم يجدوا أمامهم إلا موسى، فاتجهوا إليه عاتبين يجأرون بالشكاة ويجهرون بالندم، لأنهم اتبعوه، وسمعوا كلامه ونزلوا على رأيه، فهاجر بهم من أرض مصر أرض النعيم والنيل أرض الخير والبركة إلى صحراء جرداء وتوجه موسى إلى ربه يسأله الماء والسقيا لهذه القبائل التي خرجت معه ـ وكان عددها اثنتي عشرة قبيلة ـ وأمر الله موسى أن يضرب بعصاه ـ التي ضرب بها البحر من قبل فانفلق ـ يضرب بها حجراً من حجارة الصحراء فانفجرت منه مياه غزيرة وخرجت منه اثنتا عشرة عيناً لكل قبيلة عين ماء خاصة بها: ﴿**وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم**﴾[2].

ثم وقر في خواطرهم أن موسى قد خدعهم

---

(١) من الآية ٥٧ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٦٠ من سورة البقرة.

بإخراجهم من مصر، وأتى بهم إلى صحراء سيناء تلك المفازة الواسعة لتكون قبراً لهم، وهيأت لهم أوهامهم وضلالاتهم أن يدأبوا على إعناته بالاكثار من الطلب والسؤال عما هم في حاجة إليه وما هم ليسوا بحاجة إليه، حتى يثقلوا عليه، ويعنتوه، وييأس منهم فيرتد بهم إلى مصر حيث ألفوا العيش واستكانوا إلى الراحة واستناموا إلى الهوان والصغار . . أرادوا إعجازه وهم يعلمون أنهم في صحراء مترامية الأطراف شديدة اللظى نارية الجو صلبة التربة لا تجود بالزرع وإن جادت ضنت بالألوان العديدة منه وعزت فيها الأصناف المتباينة الطعوم والثمار؛ لذا قالوا يا موسى لن نصبر على طعام واحد، وفي الحق لم يكن ما عندهم من مَنٍّ وسلوى طعاماً واحداً، فمتى كان المن (وهو مادة نباتية لها طعم حلو) والسلوى (وهو طائر السمان ولحمه من أطيب لحوم الطير) متى كانا طعاماً واحداً إلا في عرف المكابر الجاحد والمتعنت المفتري؟ لذا قالوا: ادع لنا ربك، ربك أنت الذي تعترف به يا موسى وتلجأ إليه ليخرج لنا ألواناً عدة مما تنبته الأرض من بقل وقمح وعدس وبصل وثوم. ويستنكر

موسى طلبهم ويقول أتعدلون عن المن وعن طير السمان الذي يغطي الأرض أمامكم فتصطادون منه في سهولة ويسر؟ أتعدلون عن كل هذا إلى ما هو دونهما غذاء وأقل منهما لذة؟ إذا أردتم ما تطلبون فاتركوني واتركوا هذه الأرض التي قضى الله عليكم وعلي أن نقيم فيها، لا إلى الأبد، ولكن إلى أجل محدود لم تطيقوا صبراً عليه .. اتركوها وولوا وجوهكم شطر أية مدينة تجدوا فيها ما سألتم.

ويقول القرآن عن ذلك: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾[١].

---

(١) الآية ٦١ من سورة البقرة.

ميقات .. ووحي:

وأوحى الله إلى موسى أن يصعد إلى الجبل «جبل الطور» ويمكث فيه أربعين ليلة .. وترك موسى بني إسرائيل .. وأقام عليهم أخاه هارون خليفة له حتى يرجع، وعلى هذا الجبل خاطب الله كليمه موسى وأنزل عليه التوراة دفعة واحدة في ألواح وأسفار .. في كل سفر منها عظات وأحكام وتشريعات وتفصيلات تتناول كل ما يهم بني إسرائيل من أمور دينهم ودنياهم، وأمره أن يأمر بني إسرائيل بتنفيذ هذه التعاليم وأن يتبعوا النهج التشريعي المرسوم لهم فيها، وأن يتدرجوا في مدارج الكمال التشريعي فإذا كان هناك أمران: حسن، وأحسن، فليفعلوا الأحسن ولا يكتفوا بالحسن يقول الله: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر، فتم ميقات ربه أربعين ليلة، وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين، ولما جاء موسى لميقاتنا، وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما

أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين، قال يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين، وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾[1].

وعند عودة موسى إلى قومه رآهم قد صنعوا عجلاً جسدوه .. وألّهوه!!

وعندئذ قال لهم موسى: ﴿يا قوم، انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم...﴾[2].

إنحراف وظلم، ولا بد للظلم من توبة .. ولا بد في التوبة من القتال: يقاتل الفريق الذي تمسك بدينه الفريق الآخر الذي اتخذ العجل معبوداً؛ لعل الله يقبل التوبة.

واقتتل الفريقان، ثم تقدم الجميع في النهاية نادمين سائلين الله قبول التوبة والمغفرة.

---

(١) الآيات ١٤٢/١٤٣/١٤٤ وجزء من الآية ١٤٥ من سورة الاعراف.

(٢) من آية ٥٤ من سورة البقرة.

واختار موسى منهم سبعين رجلاً سار بهم إلى الجبل الطور ـ حيث كان يناجي ربه ـ ليتوبوا إلى الله من صنيع هؤلاء الذين عبدوا العجل . . وإذا ببعض هؤلاء يقول لموسى انا **﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾**[1] وآنئذ أخذتهم الصاعقة وأخذ موسى يرجو ربه ويسأله العفو عنهم، فحقق رجاء كليمه، وعفا وغفر.

---

(١) من آية ٥٥ من سورة البقرة.

٥ ـ ميثاق

كان هناك ميثاق وعهد أخذه الله على بني إسرائيل، يقوم على أساس الإيمان بالله، والاعتراف بوحدانيته، والعمل بما في التوراة من مفاهيم وأحكام

ونفذ بعضهم عهد الله ـ وكانوا قلة قليلة ـ أما الأكثرية فقد آذوا موسى، ونقضوا العهد، ونفضوا أيديهم من العمل بالتعاليم .. ورفضوا تحمل أحكام التوراة.

وأراد الله أن يرى هؤلاء الجاحدين آية محسوسة ملموسة يرونها بأعينهم لتؤمن قلوبهم، وتعود إلى ساحة الإيمان هذه الأفئدة التي لا تؤمن إلا بالمشاهد الملموس والواقع المرئي.

وسرعان ما رأت هذه الكثرة الجاحدة جبلاً نتقه الله وزعزعه من مكانه، وظل يرتفع ويرتفع حتى علا رؤوسهم وغدا كالظلة التي تعلوهم والمظلة التي تظللهم، وسمعوا هاتفاً يقول إن لم تؤمنوا بموسى وتذعنوا لربه وكتابه سحقكم الجبل سحقاً... خذوا

ما جاءكم بقوة إيمان، واذكروا ما في التوراة لعلكم تتقون انتقام الله. ولما رأوا بوادر عذاب الله أمام نواظرهم لم يسعهم إلا الإيمان، فآمنوا؛ حتى يكشف الله عنهم عذابه.

وما كان للنفوس المريضة أن تقيم على العهد: فلا عجب أن تولوا بعد ذاك عن الإيمان ومزقوا الميثاق ونقضوا العهد ولولا رحمة من الله وفضل منه لعجل لهم العذاب في الدنيا جزاء صنيعهم.

ويكشف المولى سبحانه للإسرائيليين عن كل هذه النعم التي أنعم بها عليهم، وعن رحمة ربهم بالرغم من جحودهم وتوليهم وإدبارهم، فيقول في سورة البقرة: **﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون، ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾**[1].

عبادة .. وعمل:

ومن التشريعات التي شرعها الله لبني إسرائيل أن

---

(١) الآيتان ٦٣/٦٤ من سورة البقرة.

أباح لهم العمل طوال الأيام الستة من كل أسبوع وحرّم عليهم العمل في يوم واحد هو يوم السبت من كل أسبوع[1]، «وفرض عليهم في هذا اليوم الاجتهاد في الأعمال الدينية؛ إحياء للشعور الديني في قلوبهم وإضعافاً لشرههم في جمع الحطام، وحبهم للدنيا، فتجاوز طائفة منهم حدود الله في السبت واعتدوها، فكان جزاؤهم على ذلك جزاء من لم يرض نفسه بآداب الدين، وجزاء مثله هو الخروج من محيط الكمال الإنساني والرتوع في مراتع البهيمية كالقرد في نزواته، وقد سجّل الله تعالى عليهم ذلك بحكم سنة الفطرة والنواميس التي أقام بها نظام الخليقة، وذلك قوله عز وجل: ﴿**ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين**﴾[2].

(١) من تفسير المنار جـ ١ ص ٣٤٣.

(٢) الآية ٦٥ من سورة البقرة.

٦ ـ جبن .. وعصيان

... وقضى الله على موسى أن يذهب ببني إسرائيل ليدخلوا الأرض المقدسة: أرض كنعان (فلسطين وما جاورها من بلاد الشام) وكان موسى طيلة تلك الحقبة التي مكثها مع بني إسرائيل في صحراء سيناء، كان دائماً ما يذكرهم بنعم الله وأفضاله عليهم ولما ذكرهم بنعم الله عليهم أمرهم بالجهاد والقتال، وذلك بالخروج من أرض سيناء إلى الأرض المقدسة تنفيذاً لأمر الله، وكان موسى قد بعث فرقة استطلاعية قوامها اثنا عشر رجلاً؛ ترود أرض الشام؛ وتستكشف أحوالها وأهلها ولما رجعت الفرقة علم منها أن أهلها قوم جبارون .. عمالقة .. ذوو منعة وقوة.

وما أن سمع الاسرائيليون هذه الأنباء حتى أسقط في أيديهم، واهتزوا خوفاً وفزعاً، وتمثلت لهم نهايتهم على يد هؤلاء الجبارين، فقالوا لموسى لن ندخل هذه الأ اضي حتى يخرج أهلها منها.

وجبنوا .. وامتنعوا عن تنفيذ أمر الله، والتجأ موسى إلى ربه ودعاه منتظراً قضاءه وحكمه عليهم ..

وصدر حكم الله معلناً أن هذه الأرض المقدسة لن تطأها أقدام هؤلاء الفجرة الفسقة، ولن يكتب لهم الاستقرار فيها أبداً؛ فهي محرمة عليهم إلى الأبد، وعقاباً لهم فقد حكم الله عليهم بأن يتيهوا حيثهم في صحراء سيناء أربعين سنة يسيرون فيها حائرين، لا وجهة لهم ولا هدف ولا مقصد، بل حيرة وضلال.

ومع نهاية الأربعين عاماً هلك في الصحراء هؤلاء الاسرائيليون الذين أذلتهم العبودية فأماتت ضمائرهم وأحاسيسهم، وأرضعتهم لبان الذلة والهوان فلم يصيخوا لصوت السماء ولم يذعنوا لكلمة الحق.

ولم يقدر الله لموسى، ولا لأخيه هارون أن يدخل أحدهما الأرض المقدسة، فمات هارون ودفن في جبل من جبال سينا ولحقه موسى بعد عام، بعد أن أعلن في بني إسرائيل دين الله.

عن كل هذا، عن الجبن والخور .. عن

النفوس الهشة الإيمان الضعيفة البنيان .. عن ذلة اليهود وهوانهم .. عن عصيانهم .. عن موقف موسى منهم وموقفهم من موسى، عن هذا كله تتحدث الآيات الآتية من سورة المائدة:

﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين، قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فإنا داخلون، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما: ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين، قال فانها محرمة عليهم، أربعين سنة يتيهون في الأرض، فلا تأس على القوم الفاسقين﴾[1].

---

(١) الآيات: من ٢٠ إلى ٢٦ من سورة المائدة.

٧ ـ القرآن .. والتوراة

التوراة المتداولة اليوم، والتي يترنم بها اليهود ويرددها الاسرائيليون في معابدهم، لا يعترف القرآن بها، بل سجل في عديد من الآيات أنها محرّفة مزورة، زيد عليها وأنقص منها؛ فشوهت بما استحدث فيها وحرفت بما نقص منها.

ولا يعترف القرآن إلا بالتوراة التي أنزلت على موسى: **﴿فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيّون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾**[1].

تلك هي التوراة: الكتاب المقدس، والتعاليم الإلهية لبني إسرائيل التي تضمنتها الأسفار (الألواح) المنزّلة على موسى: **﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾**[2].

تلك التوراة التي تقرر وحدانية الله وتنزيهه عن

(١) الآية ٤٤ من سورة المائدة.

(٢) من الآية ١٤٥ من سورة الأعراف.

كل مظاهر النقص والتي ترتكز على الاعتراف باليوم الآخر والإيمان بما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار، والتي تضمنت عظات وأفكاراً وشريعة لبني إسرائيل يحكم بها أنبياؤهم ويحفظها رهبانهم ويحافظ عليها أحبارهم. تلك هي توراة موسى التي أنزلت عليه والتي اعترف بها القرآن، واعترف بأن فيها هداية لبني إسرائيل ونوراً لهم، وهذه التوراة الأصلية الأصيلة ببنودها ونصوصها وتعاليمها وموادها الكاملة المتكاملة لا وجود لها بهذه الصورة الإلهية التي كانت عليها وقت موسى؛ فقد تخلص اليهود منها وكتبوا سواها بما يتلاءم مع أهوائهم ويتواءم مع مخططاتهم، وزعموا، بعد كل هذا، أنها هي التوراة التي أنزلها الله.

والذي تولى ذلك الصنيع الآثم من قديم، فغيّر وبدّل وحرّف إنما هم طائفة منحرفة متخصصة .. تولت التصحيف والتحريف والتأويل والتعمية بإخفاء الحقائق الالهية ليحافظ رهبانهم ورؤساؤهم على مكانتهم ومكاسبهم وعن هذا يقول القرآن: ﴿من **الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه**﴾[1] ويقول:

---

(١) من الآية ٤٦ من سورة النساء.

﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾[1] ويقول: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾[2]

كذلك عمد لفيف من رؤوسائهم الدينيين إلى إخفاء بعض الأسفار في الهيكل وكتمان ما فيها من حقائق وبشارات وعن هذا يقول القرآن: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾[3] ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾[4] ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في

---

(١) الآية ٧٩ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١٣ من سورة المائدة.

(٣) الآية ١٥ من سورة المائدة.

(٤) من الآية ٩١ من سورة الانعام.

الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾[1].

وقد رأى الرسول ﷺ ورقة من التوراة في يد عمر رضي الله عنه، فأمره بإلقائها لما بها من أباطيل وما فيها من تحريف، ثم قال: «ألم آتكم بها بيضاء نقية؟ والله لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا اتباعي».

وإذا كان القرآن قد حكم بأن تعاليم التوراة تنوسيت وأخفيت، فقد حكم أيضاً بأن بعضها قد نسيه اليهود فعلاً: **﴿ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾**.

بهذا كله يحكم القرآن بأن التوراة المتداولة المشهورة في الأوساط اليهودية ليست هي التوراة المنّزلة على موسى. يقول «رحمة الله الهندي» في كتابه «إظهار الحق صَفحة ١٣٣» قال: «جان ملنر» في صفحة ١١٥ من كتابه الذي طبع في بلدة «دربي» سنة ١٨٤٣: اتفق أهل العلم على أن نسخة التوراة الأصلية وكذا نسخ كتب العهد العتيق ضاعت من أيدي عسكر بختنصر، ولما ظهرت نقولها الصحيحة بواسطة «عزرا» ضاعت تلك النقول أيضاً في حادثة «أنتيوكس» وعن هذه الحادثة يقول رحمة الله في كتابه

(١) الآية ١٥٩ من سورة البقرة

السابق صفحة ١٩٠: «لما فتح أنتيوكس ملك ملوك الفرنج أورشليم أحرق جميع نسخ كتب العهد العتيق وأمر بقتل كل من يوجد عنده نسخة من كتب العهد القديم، وكانت هذه الحادثة قبل ميلاد المسيح بأكثر من مائة سنة، وهذه الحادثة مفصلة في تاريخ اليهود وتاريخ بوسيفس»، ومما يجزم بأن هذه التوراة المتداولة الآن ليست توراة الله أنها صورت أنبياء بني إسرائيل بصورة مشوّهة ونزعت من بعضهم العصمة، بل ردتهم إلى درك الحيوانية وإلى مهاوي الشرك والارتداد عن الإيمان، يقول رحمة الله الهندي[1]: «وقع في الباب التاسع عشر من سفر التكوين أن لوطاً عليه السلام زنى بإبنتيه، والعياذ بالله تعالى. وحملتا من أبيهما وتولد لهما إبنان هما: أبو الموابيين، والعمانيين، وما وقع في الباب الحادي والعشرين من سفر صمويل الأول من أن داود عليه السلام زنى بامرأة أوريا وحملت بالزنا منه، فقتل زوجها بالحيلة وتصرف فيها، وما وقع في الباب الحادي عشر من سفر الملوك الأول أن سليمان عليه السلام ارتد في آخر عمره بترغيب

(١) ص ١٣٣ من كتاب إظهار الحق.

أزواجه وعبد الأصنام وبنى لها معابد وسقط من نظر الله، وأمثال هذه القصص التي تقشعر منها جلود أهل الإيمان ويكذبها البرهان».

ويقول الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه « الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام » ص ١٧ «ظهر للمحدثين من الباحثين من ملاحظة اللغات والأساليب التي كتبت بها هذه الأسفار وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع، والبيئات الاجتماعية والسياسية التي تنعكس فيها، ظهر لهم من ملاحظة هذا كله أنها ألفت في عصور لاحقة لعصر موسى .. وأنها جميعاً مكتوبة بأقلام اليهود وتتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل، فهي إذن تختلف كل الاختلاف عن التوراة التي يذكر القرآن أنها كتاب سماوي مقدّس أنزله الله على موسى».

ثم تحدث عن الشريعة في أسفار اليهود فقال[٢]:

---

(١) ص ١٣ من كتاب الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ـ د. علي راضي.

«. . . إنه يلاحظ في هذه الشريعة كثيراً من مظاهر الانحراف والتضارب واختلاط المسائل، أما انحرافها فيتمثل في قيامها على التفرقةالعنصرية؛ وذلك أنها تجعل اليهود الشعب المختار الذي اصطفاه الله وفضله على العالمين، وتنظر إلى ما عداه من الشعوب نظرتها إلى شعوب وضيعة في سلم الانسانية، وتضع قوانينها ونظمها على هذا الأساس، فتفرق بين هؤلاء وأولئك أمام القانون وفي كثير من شؤون الاجتماع، فمن ذلك ـ مثلاً ـ أن الاسرائيليين محرّم عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً وأن يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، على حين أنه مباح للاسرائيليين، بل واجب عليهم غزو الشعوب الأخرى، وخاصة شعب كنعان، وواجب عليهم بعد انتصارهم على بلد ما أن «يضربوا رقاب جميع رجالها البالغين بحد السيف» فلا يبقوا على أحد منهم، ويسترقوا جميع نسائها وأطفالها ويستولوا على جميع ما فيها من مال ومتاع وعقار، أو ينهبون نهباً حسب تعبير أسفارهم»[1]. وأما عدم وحدتها فذلك أن أحكام أسفارها يتضارب بعضها مع

---

(١) كما جاء في فقرتي ١٣ و١٤ من إصحاح ٢٠ من سفر التثنية.

بعض في كثير من الشؤون، فقد يقرر سفر في حادث ما حكماً ويجيء سفر آخر فيقرر في الحادث نفسه حكماً آخر كالتناقض الذي بين سفري الخروج والتثنية في حالة بيع الاسرائيلي نفسه لأخيه الاسرائيلي، وفي هذين المظهرين اللذين تتسم بهما شريعة اليهود دليل آخر على أن أسفارهم هذه من صنع أيديهم، وعلى أن كل سفر منها يعكس التقاليد والنظم التي كانوا يسيرون عليها في العصر الذي ألف فيه، وعلى مبلغ الخلاف بين توراتهم المزعومة والتوراة الصحيحة التي أنزلها الله على موسى، فان كتاباً من عند الله لا تتضارب أحكامه بعضها مع بعض: **﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾**[1]، وإن شريعة من عند الله لا تقر التفرقة العنصرية بين أفراد الآدميين: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾**[2].

---

(١) آية ٨٢ من سورة النساء.

(٢) آية ١٣ من سورة الحجرات.

٨ ـ أخلاقيات اليهود كما يصورها القرآن

إن القرآن الخبير بالنفسيات العليم بالسرائر يشفق لنا في صراحة ووضوح أخلاقيات اليهود، ويكشف في صدق وعمق عن طباعهم وجبلاتهم، ويسجل عليهم انحرافاتهم ومختلقاتهم وأحاسيس نفسياتهم السوداء ونبض قلوبهم المريضة: قسوة وغدر، وظلم وقتل، وتحريف، وتخريب، واستكبار وتكذيب، واستغلال وجشع وخداع وغش، ونقض للمواثيق، وتدليس وتلبيس الباطل بالحق لتنبهم السبل على طالبي الحق والحقيقة. هذه هي أخلاقيات اليهود كما صوّرها القرآن وكما كشف عنها كتاب الله:

﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم، وجعلنا قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾[1].

وعن التكذيب والقتل يقول القرآن: **﴿أفكلما**

---

(١) آية ١٣ من سورة المائدة

جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾[1].

وعن تلبيس الحق بالباطل يقول لهم: ﴿لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾[2].

وعن عصيانهم واعتدائهم يقول: ﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس، وباءوا بغضب من الله، وضربت عليهم المسكنة، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانو يعتدون﴾[3].

وعن مسلكهم البعيد عن الانسانية من اغتصاب الحق، ومن الظلم، ومن أكل أموال الناس بالباطل، ومن التعامل بالربا يقول القرآن: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم، وبصدهم عن سبيل الله كثيراً، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم

---

(١) آية ٨٧ من سورة البقرة.
(٢) آية ٧١ من سورة آل عمران.
(٣) اية ١١٢ من سورة آل عمران.

أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾[1].

ويحفل القرآن بعديد من الآيات غير هذه تحلل نوازعهم النفسية ومنازعهم التي تجافي الانسانية وتنافي الطبائع السليمة.

إنكار:

وفي آيات من سورة البقرة تبيان لموقف اليهود من دعوة محمّد ﷺ وتشريح للموقف اليهودي العدواني بكل أبعاده: هاجموا الإسلام وأعرضوا عنه وحاربوه بكل وسائلهم، وأنكروا نبوة محمد مدعين أن الرسل لا تكون إلا من بني إسرائيل ومن شعب إسرائيل دون بقية الشعوب لأنهم شعب الله المختار.

وكان اليهود يتباهون على المشركين وعلى عبدة الأوثان في جزيرة العرب قبل مبعث محمد ويقولون لهم سيظهر رسول يخذل الوثنية والشرك ويدعو إلى الله ويؤيد دين موسى وكتابه... ولما بعث النبي محمد

---

(١) آية ١٦١ من سورة النساء.

وعرفوا مجيئه كفروا به وشاركوا المشركين في كفرهم بمحمد وبدعوته، فقد راعهم أن يبعث محمد من العرب من سلالة إسماعيل، وكانوا ينتظرون مؤملين أن يكون من سلالة أبيهم إسحق. ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين. بئسما اشتروا به أنفسهم ان يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾(١).

وينعي عليهم القرآن موقفهم من القرآن وكفرهم به وصدهم الناس عن الإيمان وبخاصة وهم أهل كتاب: ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون، قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون﴾(٢).

---

(١) آية ٨٩ و ٩٠ من سورة البقرة.

(٢) آية ٩٩ من سورة ال عمران.

أوهام!!

تخيل اليهود أنهم أسمى من أن تشملهم دعوة محمد .. فخالوا أنهم أهدى منه، وتغالوا في هذا التخيل والادعاء وبخاصة عندما رأوا محمداً يعلن إيمانه بأنبيائهم وبكتبهم، وحينما سمعوا القرآن يقول لمحمد عن لفيف من أنبياء بني إسرائيل: **﴿أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده﴾**[1] وحينما سمعوا القرآن يقول: **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل، وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾**[2].

وحينما سمعوا القرآن يقول: **﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين﴾**[3].

وقالوا ما دام القرآن قد سجّل لنا كل هذا

---

(١) آية ٩٠ من سورة الانعام.

(٢) آيتا ٢٣ و٢٤ من سورة السجدة.

(٣) آية ١٦ من سورة الجاثية.

الفضل والفخر، وما دام محمد يتجه في صلاته إلى «بيت المقدس» قبلتنا، وما دام يقول أنه على ملة أبينا إبراهيم فنحن الأصل والمنبع وهو التابع، وعليه أن يهتدي بهدينا وأن يتبع ملتنا وينضوي تحت لواء عقيدتنا ويعمل بتعاليمها حتى يضمن له ولأتباعه الجنة: ﴿**وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى**﴾[1] ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**﴾[2].

«وخاب ظنهم عندما رأوه يدعوهم في جملة الناس، بل يختصهم بلسان القرآن أحياناً بالدعوة، ويندد بهم لعدم إسراعهم إلى استجابتها، ولموقفهم منها موقف الانقباض... ثم موقف التعطيل والتناقض، كما جاء في هذه الآية التي تندد بتناقضهم: ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون**﴾ فكان هذا، على ما هو المتبادر - باعثاً على تنكرهم للدعوة، وحقدهم على صاحبها منذ الخطوات الأولى .. ثم

---

(١) من آية ١١١ سورة البقرة.

(٢) آية ١٢٠ من سورة البقرة.

(٣) آية ٤٤ من سورة البقرة.

رأوا الناس قد أخذوا ينصرفون عنهم ويتخذون النبي مرجعهم الأعلى، ومرشدهم الأعظم، وقائدهم المطاع، فاستشعروا - حقاً أو باطلاً - الخطر العظيم يحدق بمركزهم وامتيازاتهم ومصالحهم إذا هم أرادوا أن يستمسكوا بكيانهم الخاص ويظلوا على يهوديتهم، ولا يندمجوا في الدعوة الإسلامية، فكان هذا عاملاً على اندفاعهم في خطة التنكر، والحقد، والتآمر، والصد، والتعطيل إلى نهايتها»[1].

ولم يترك القرآن دعاواهم ومزاعمهم من غير رد أو نقد أو نقض، فنراه في هذه الآية: ﴿**وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، تلك أمانيهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾[2] نرى القرآن في هذه الآية السالفة يعرض مزاعمهم ثم يعرض بها ويرد عليها في تركيز وبراعة ومنطقية، يعرض بادىء ذي بدء دعواهم فيقول: ﴿**وقالوا لن يدخل الجنة إلا**

(١) ص ٥٢ من كتاب سيرة الرسول لعزة دروزة جـ ٢.

(٢) آية ١١١ و ١١٢ من سورة البقرة.

من كان هودا أو نصارى﴾ ثم يرد عليها في عمق وتركيز ﴿تلك أمانيهم﴾ أوهام وتخيلات تفتقر إلى الأدلة الإيجابية وتحتاج إلى البراهين المدعمة فلا غرو أن ثنى القرآن بعد ذلك بقوله: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ وما يلبث بعد إلا أن يقرر الأسس الإيجابية والمبادىء الحقيقية والمناهج الموصلة إلى هذا الهدف فيقول: ﴿بلى، من أسلم وجهه لله، وهو محسن فله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ «فلا تغرنكم الأماني ولا يخدعنكم الانتساب الباطل إلى الأنبياء، فهذه هي طريق الجنة: أسلموا وجوهكم لله تسلموا واعملوا الصالحات تؤجروا»[1].

ويدلف القرآن إلى زعمهم الثاني ويتتبعه مفنداً له، راداً عليه: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى﴾ فالقرآن يقرر أولاً أن الهدى الحق هو هدى الله وأن الدين الحق والملة الصحيحة هي ملة الله، هي دين الله، هي الإسلام: ﴿إن الدين عند الله

(١) من تفسير المنار جـ ١ ص ٤٢٧.

الإسلام﴾[1] هذه هي الحقائق الإلهية وهذه هي ادعاءات اليهود وافتراءاتهم وأهواؤهم ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير**﴾[2]

مزاعم:

ومن زيفهم أنهم حينما سمعوا الإنذار القرآني يهدد المذنب بالعقاب والكافر بالعذاب زعموا قائلين: إن لنا عند الله مكانة وحظوة، فلن يمسنا عذابه إلا بمقدار، ولن تنالنا ناره إلا أياماً معدودات... أياماً فقط، لا خلود فيها ولا استقرار بها، لأننا شعب الله المختار، ولأننا وحدنا أولياء الله وأحباؤه، ويورد القرآن هذه المزاعم كلها ويرد عليها: ﴿**وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده. أم تقولون على الله ما لا تعلمون، بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، والذين**

(١) آية ١٩ من سورة آل عمران.

(٢) من آية ١٢٠ سورة البقرة.

آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾[1].

﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾[2].

﴿قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾[3].

تطاول!!

ذهب أبو بكر رضي الله عنه يعرض على اليهود أن يحكموا صوت العقل والعقيدة، وأن يؤمنوا بمحمد الذي يعترف بالتوارة وبموسى، والذي بشّرت التوراة بمبعثه، وأن يؤمنوا باله محمد الواحد الأحد، وأن

---

(١) آية ٨٢ من سورة البقرة.

(٢) آية ٩٤ من سورة البقرة.

(٣) آية ٦ من سورة الجمعة.

يقرضوا الله قرضاً حسناً بالإنفاق في سبيله، فسخروا من أبي بكر ومن دعوته هذه، وتطاولوا قائلين: إذا كان الله يطلب منا قرضاً فهو إذن فقير ونحن أغنياء، ويرد الله سبحانه عليهم مهدداً مذكراً لهم بمواقف آبائهم الإجرامية من كل دعوة إلهية: ﴿**لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق، ونقول ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد**﴾[1].

ولما قاطع المسلمون اليهود إبان المعارك التي قامت بينهما، أثرت هذه المقاطعة في حالة اليهود الاقتصادية، وقد نضح هذا التأثير على أخلاقياتهم فدفعهم إلى سوء الأدب في حق الله، وأخذوا يقولون أن يد الله مغلولة عنهم ويقول القرآن: ﴿**وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله**

(١) آية ١٨١ من سورة آل عمران.

ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين﴾[1]

تآمر:

عمد اليهود بادىء الأمر وفي مستهل حياة الدعوة الإسلامية، إلى المنافقين ينفثون فيهم روح الشك ويبثون آيات الريب ويقوون فيهم متجههم .. كلما خبا لهيب موقفهم زادوه اشتعالاً .. ونام المنافقون إلى صنيع رؤسائهم وموجهيهم اليهود واستكانوا إليهم واستجابوا لهم وصاروا أداة في أيديهم وأبواقاً يرددون ما يلقونه في روعهم.

والمنافق أمعة مذبذب لا يقوى على المجابهة وإعلان رأيه يوجهه الغير ويسخره ويسيطر عليه، لذا غدا اليهود ولاة للمنافقين وقادة لهم: ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون**﴾[2]. «قال جمهور المفسرين: إن شياطينهم هم اليهود، ويدل هذا على

(١) آية ٦٤ من سورة المائدة.

(٢) آية ١٤ من سورة البقرة.

أن اليهود هم الذين أغروا المنافقين بالنفاق أو شجعوهم في مواقف الخداع وعلى أن النبي ﷺ والمسلمين لم يغب عنهم ذلك»[1]. ثم غدا اليهود إلى أعداء الدعوة الإسلامية الذين جاهروا بالعداء، وما دام القرشيون هم أعداء المسلمين الظاهرون أعداء الدعوة .. أعداء الرسول فليسعوا إليهم يمدون لهم يد التحالف والمناصرة يظاهرونهم على محمد ويناصرونهم على أصحاب محمد، ويقدمون للقرشيين كل عون حربي أو مادي ليعملوا جميعاً على إقامة سد منيع تتحطم على صخوره دعوة محمد ويحول دون وصول هديها إلى القلوب ويمنع سريانها حتى لا تتجاوز النطاق الذي صدرت منه.

قوة ضعيفة:

وقد كشف القرآن للمسلمين عن حقيقة القوى الاسرائيلية التي يتباهى بها اليهود على المسلمين، وأبان أنها قوى واهية واهنة، وقوة ضعيفة، هي قوة الجبان وقوة الذليل، إن كان لكليهما قوة، وكان اليهود يستعرضون عضلاتهم ويعرضون على أنظار

(١) من كتاب سيرة الرسول ص ٤٩.

المسلمين ـ ولا سيما حديثي العهد منهم بالإسلام ـ ما حباهم الله به من وفرة وكثرة في المال والعتاد والسلاح.

وقد لجئوا إلى هذه الوسيلة، ليحطموا بها معنويات المسلمين ويغزوهم نفسياً حتى يقطعوا السبيل على المسلمين إذا أرادوا أن ينكلوا بهم، فهون القرآن شأنهم ولفت أنظار المسلمين إلى حقيقة أمرهم ومسلكهم من جبن وفرار، ومذلة وصغار: ﴿**لن يضروكم إلا أذى، وان يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون، ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس، وباءوا بغضب من الله، وضربت عليهم المسكنة، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾[1].

عصيان .. ولعنة:

﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا**

---

(١) آية ١١١ و١١٢ من سورة آل عمران.

يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون﴾[1].

كفر وعصيان .. وتطاول واعتداء وسكوت عن المنكر ورضا به تلك جبلة اليهود الذين يعيشون التآمر ويحيون على الخديعة وينامون على الضغن ويصحون على الحسد ويتنفسون الغدر، لعنهم الله على لسان كل رسول ونبي جزاء أفعالهم.

٩ ـ بين الكعبة وبيت المقدس

كان المسلمون في مستهل حياتهم العقيدية يصلون، ولم تكن صلاتهم إذ ذاك إلا اتجاهاً إلى الله في دعاء وتوسل وخشوع، ولم تكن لهذه الصلاة أوقات معينة ولا طقوس خاصة، ولم تكن تتعدى ابتهالات ورجوات يرفع بها المسلمون أكف الضراعة إلى الله، وتسبيحات وتحميدات على ما أفاء الله عليهم من منة الإسلام ونعمة الهدى والإيمان، **﴿لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾**[2] فالله في كل مكان لا تحده جهة ولا تحصره أمكنة...

وكان الرسول ﷺ يتشوف ويتشوق... يتشوف

(١) آية ٧٨ من سورة المائدة. (٢) آية ١١٥ من سورة البقرة..

إلى أن توجد قبلة يتجه إليها المصلون في صلاتهم ترمز إلى الوحدة في المتجه والاتحاد في العبادة. . . وكان الرسول بادىء الهجرة. . . وقبل بناء مسجده الأول يتجه في صلاته إلى «الكعبة» قبلة أبيه إبراهيم، ثم أمر بعد الهجرة فاتجه إلى المسجد الأقصى، وظل يصلي في هذا الاتجاه قرابة عام وبعض عام «وقد اتجه إلى المسجد الأقصى عزوفاً عما كان في مكة من أصنام وتفادياً من اشتراكه في الاتجاه إليها مع المشركين أو لعله فعل هذا عند هجرته من مكة من أجل هذين السببين من جهة، وتأثراً من موقف أهل مكة الجحودي الذي اضطره الى مفارقة مكة من جهة ثانية، وتألفاً لليهود وتسهيلاً لإجابتهم دعوته من جهة ثالثة، ولكن اليهود وقفوا منه موقف الإنكار والجحود والدنس من جهة، وأخذوا يزهون عليه وعلى المسلمين بأن اتجاههم إلى قبلتهم هو اعتراف بأنهم على الهدى، وبأن النبي والمسلمين إنما يقتبسون الهدى منهم، وبأنهم أولى أن يتبعوهم ويندمجوا فيهم، لا العكس، فحز هذا في نفس النبي ﷺ وانبثقت فيها أمنية التحول عن سمت المسجد الأقصى»[1].

(١) صفحة ٤٠ من كتاب «الرسول في القران» لمحمود بن الشريف.

وظل الرسول يتشوق ويتطلع إلى أن تتجه القبلة إلى قبلة أبيه إبراهيم .. إلى الكعبة. وكان يتوقع - كما يقول الزمخشري: «كان يتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة لأنها قبلة أبيه إبراهيم وادعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ولمخالفة اليهود، فكان يراعي نزول جبريل والوحي بالتحويل».

ونزل وحي الله يعبر عن حالة محمد ونفسية محمد وأمنية محمد: **﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾**[1].

إن في مطلع تلك الآية السالفة قرينة قوية على ما اعتلج في نفس محمد من أزمة بسبب الاتجاه نحو المسجد الأقصى وزهو اليهود وموقفهم من ذلك، وعلى ما قام فيها من رغبة في التحول عنها، وقوله تعالى: **﴿فلنولينك قبلة ترضاها﴾** يمكن أن يلهم أن النبي ﷺ حين صار يائساً أو كاليائس من اليهود وثارت في نفسه تلك الأزمة وقامت فيها هذه الرغبة تراءى له أن اتجاهه إلى قبلتهم مما يضعف قوة دعوته، وأن

---

(١) آية ١٤٤ من سورة البقرة.

دعوته إلى قبلته الأولى مما يؤلف قلوب العرب، كما أن ذلك هو الأولى، لأنها بيت الله القديم الذي يعرفه العرب ويرتبطون به، والذي هو من عوامل وحدتهم الروحية بسبب اشتراكهم جميعاً في حجه، فكان يتمنى أن يتحول إليها في صلاته وتكون قبلته ثانية، ولعله كان يسمع تألماً أو انتقاداً أو يرى حيرة العرب ـ مسلمين وغير مسلمين ـ من الاتجاه إلى المسجد وإهمال الكعبة، وهي بيت الله العربي المقدس منذ قديم الأحقاب فكان هذا مما قوى في نفسه من الرغبة والأمنية»[1].

ثم يقول الله: ﴿**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه**﴾[2].

«إن استقبالك بيت المقدس كان أمراً عارضاً لغرض وإنما جعلنا الجهة التي كنت عليها وقتك هذا ـ وهي: بيت المقدس ـ لنمتحن الناس وننظر من يتبع الرسول منهم ومن ينفر عنه».

---

(١) ص ٧٩ جـ ٢ من كتاب سيرة الرسول لمحمد عزة دروزة.

(٢) من آية ١٤٣ من سورة البقرة.

فما كان ذلك التحويل إلا امتحاناً لمن يؤمن ويذعن ويرضى بأمر الله، وكشفاً عمن يعاند ويشاقق وينافق .. كان اختباراً نسبر به غور المؤمن وعمق إيمانه ونستشف به ضحالة يقين الجاحد وضآلة معتقده ..

فكان عملاً إيجابياً كاشفاً يوضح لك الرؤية ويحدد الأبعاد .. يظهر لك من اتبعك وأقام على ملتك وسار في طريقك كما يظهر لك من انتكس ونكص على عقبيه ورجع إلى ظلامه وأوهامه كما أظهر لك اليهود السفهاء على حقيقتهم.

«ولقد رأى اليهود في هذا التحول ضربة شديدة توجه إلى مكانتهم الدينية ووسيلتهم إلى الزهو على النبي ﷺ والمسلمين فنشطوا إلى الدس والحجاج وتشكيك المسلمين، فقالوا إذا كان سمت المسجد الأقصى غير حق، فقد أضاع النبي عبادة الذين صلوا إليه، واذا كان حقاً فلا معنى للتحول عنه، وتكون الصلاة إلى الكعبة ضائعة!!. وقالوا أن أفعال النبي لو كانت مستندة إلى وحي رباني لما نسخ اليوم ما فعله بالأمس، ولما قال اليوم قولاً ثم نقضه في الغد، لا سيما في الأمور التعبدية» ﴿**سيقول السفهاء من الناس**

ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها. قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[1].

وكان لهذه المزاعم والترهات التي أذاعها اليهود وادعاها أحبارهم كان لها بعض الأثر في نفسية بعض المسلمين، ذهب «حيى بن أخطب» وأصحابه من اليهود وقالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس، إن كانت على هدى فقد تحولتم عنه، وإن كانت على ضلالة فقد دنتم الله بها مدة، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة.

فقال المسلمون: إنما الهدى فيما أمر الله به والضلالة فيما نهى عنه. قالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا؟ وقد مات قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة: أسعد بن زرارة من بني النجار و«البراء بن معرور» من بني سلمة ورجال آخرون .. فانطلق عشائرهم إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله قد صرفك الله إلى ملة إبراهيم، فكيف باخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: **﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾**[2] أي:

---

(١) آية ١٤٢ من سورة البقرة.

(٢) من آية ١٤٣ من سورة البقرة.

صلاتكم إلى بيت المقدس، عن تحويل القبلة . .
وعن الكعبة . . وعن موقف اليهود ودسائسهم وعن
أماني محمد تعرض هذا كله تلك الآيات من سورة
البقرة: ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن
قبلتهم التي كانوا عليها، قل لله المشرق والمغرب
يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وكذلك جعلناكم
أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول
عليكم شهيداً، وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا
لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وان
كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله، وما كان الله
ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤوف رحيم، قد نرى
تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول
وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا
وجوهكم شطره وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه
الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ولئن أتيت
الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك، وما
أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض، ولئن
اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك إذاً
لمن الظالمين. الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما
يعرفون أبناءهم وان فريقاً منهم ليكتملون الحق وهم

يعلمون الحق من ربك فلا تكونن من الممترين. ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ماتكونوا يأت بكم الله جميعاً ان الله على كل شيء قدير، ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وانه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون. ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة، إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾[1].

وبعد:

«فمن العجيب المعجز أن يقرأ المرء اليوم آيات القرآن المدنية في أخلاق اليهود بوجه عام، وعاداتهم، ومكايدهم، ودسائسهم وأنانيتهم، وزهوهم، وتبجحهم واستحلالهم لكل ما في أيدي الغير، وضنهم بأي شيء مفيد للغير، وعدم إخلاصهم في محبة أو موقف وفاء للغير، وحسدهم لأي نعمة ينالها الغير، وتدبيرهم لكل وسيلة - مهما دنأت وفجرت - وكان فيها كفر وفسق، ونقضهم لمبادىء الدين والعهد في سبيل مكايدة الغير وتهديمه وسلب ما

---

(١) الآيات: ١٤٢ الى ١٥٠ من سورة البقرة.

اله من نعمة وخير وتشجيعهم لكل حاقد وحاسد ومنافق ودساس ومتآمر.

ثم ينظر المرء إليهم اليوم فيكاد يرى إجمالاً، صورة طبق الأصل، جبلة خاصة، وترفع عن الاندماج الصادق مع من يعيشون معهم من الأمم وأهل الأوطان، ودس ومكر وكيد، وجحود وحجاج ولجاج، وندب وعويل بدون مبرر وشره شديد إلى ما في أيدي الغير، ومحاولة للاستيلاء على الكل، والتأثير في الكل، واللعب في وقت واحد على كل جبل وفوق كل مسرح، والتوسل بكل وسيلة إلى الغاية التي يريدون، وعداء لكل الناس، وسخرية منهم وخداع لهم، وتهديم لكل بنيان وكيان ونظام في كل مكان وزمان وتسخير لكل قوة في سبيل مآربهم وأنانيتهم وكيدهم وعدائهم، وقسوة متناهية في أعدائهم حين يتمكنون منهم. انهم لا يوجدون في أرض إلا والعين مزورة عنهم، والسخط فائر عليهم، والنفوس متبرمة بهم، والناس مستثقلون ظلهم راغبون في التخلص بأية وسيلة منهم، وجاعلون الحذر منهم أساس صلاتهم بهم، بسبب تلك الأخلاق المتوارثة فيهم جيلاً عن

جيل، والتي يلمسها الناس فيهم بكل شناعتها وسوءاتها، وليس هذا اليوم فحسب، بل انه لكذلك منذ عهد النبي ﷺ، وعلى امتداد القرون المتطاولة ومن قبل الناس جميعاً، بل من قبل عهد النبي، على ما دفعتهم به أسفار العهد القديم وحوادث التاريخ مما لا يمكن تعليله إلا بتلك الجبلة الخاصة التي جلبت عليهم ما جلبت منذ أقدم الأزمنة إلى الآن»[1].

(١) من كتاب سيرة الرسول لعزة دروزة، ص ٥٥/٥٤ من الجزء الثاني.

١٠ - يهود المدينة

ولما حل محمد ﷺ في المدينة أطلق الحرية الدينية لأهل الكتاب .. للنصارى ولليهود على السواء ..

وعقد محمد عهداً مع اليهود ..

وقبل أن نمضي في تبيان ذلك العهد، وتقرير بنوده ونصوصه من واقع النص الأصلي لهذا العهد، نعرج على ما يتشدق به البعض اليوم من أن الرسول عاهد اليهود فلماذا لا نعاهدهم اليوم؟

وذلك تساؤل في ظاهره الوجاهة وفي باطنه جهالة، فهو، كما يقال، قياس مع الفارق، وليس هناك فارق واحد، بل فوارق متعددة، فاليهود في عهد محمد غير الصهيونيين في عهدنا اليوم .. صهاينة اليوم أفاقون لا خلاق لهم ولا خلق .. لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، ولا دين لهم إلا المادة.

أما يهود الأمس .. يهود المدينة فقد اندمجوا في الحياة العربية .. وكانوا مقيمين في المدينة: بنو قينقاع وسطها وبنو قريظة جنوبها ويهود خيبر في

شمالها، وعقدوا مع جيرانهم العرب ـ قبل مبعث محمد عهوداً وارتباطات وكانوا أصحاب كتاب سماوي يبشرون بمبعث النبي ويستفتحون به على العرب.

على أن طبيعة اليهود هي هي في كل عصر، فمع أن النبي ﷺ «منذ أن حل في المدينة كتب بينهم وبينه عهداً أمنهم فيه على حريتهم الدينية وطقوسهم ومعابدهم وأموالهم وحقوقهم، وأبقاهم على محالفاتهم مع الأوس والخزرج وأوجب لهم النصرة والحماية مشترطاً عليهم ألا يغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدواً ولا يمدوا يداً بأذى، مع هذا فانهم ما لبثوا أن تطيروا من قدومه إلى المدينة وأخذوا ينظرون بعين التوجس والخوف إلى احتمال رسوخ قدمه وانتشار دعوته واجتماع شمل الأوس والخزرج تحت لوائه بعد ذلك العداء الدموي الطويل الذي كانوا ـ من دون ريب ـ يستغلونه في تقوية مركزهم، وخشوا على المركز الذي هم فيه والامتيازات الكبيرة التي كانوا يتمتعون بها ويجنون منها أعظم الثمرات»[1].

---

(١) ص ٥٠ من كتاب سيرة الرسول.

وينص العهد الذي عقده محمد مع اليهود على أن[1] اليهود: «ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف وأن البر دون الاثم (أي أن البر والوفاء يحجز ويمنع الاثم) وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم، وأن النصر للمظلوم، وأن الجار كالنفس، وأن من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم. وأن الله جار لمن بر واتقى .. الخ».

«ولقد كان في هذا العهد ضمان كاف لأن يعيش اليهود مع المسلمين في أمن وسلام، إذ كانت نصوصه

---

(١) يرجع إلى النص الحرفي الكامل لهذا العهد في كتاب سيرة ابن هشام ص ١٧٥ جـ١.

صريحة واضحة في بيان ما لكل فريق من الحقوق وما عليه من الواجبات، وكان الأساس الذي قام عليه هو التعاون والتناصح والاخلاص والمسالمة والتناصر على كل ظالم ومعتد، وقد نص في الميثاق على قريش بالذات لأنها كانت العدو الحاضر الذي ظاهر المسلمين بالعداوة وبادأهم بالعدوان كذلك نص هذا الميثاق على مبدأين هامين، كانا كفيلين وحدهما بضمان السلام الداخلي بين اليهود والمسلمين أولهما «أن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الأثم» وثانيهما «أن من ظلم وأثم فانه لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته».

فهل كان اليهود مخلصين في النصح والنصيحة للمسلمين؟ وهل كانوا يدعون للبر دون الاثم؟ إن الله العليم بأسرار النفوس ليشهد عليهم بغير هذا، إذ يحذر المؤمنين في هذه الفترة من الاطمئنان إليهم والثقة بهم، فيقول سبحانه:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، قد بيّنا لكم

الآيات إن كنتم تعقلون، ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم، وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا: آمنا، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ، قل: موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور، ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ان الله بما يعملون محيط﴾[1] ففي هذه الآيات تصوير بالغ الدقة لنفسية اليهود، وما تخفي صدورهم من كوامن الحقد والعداوة للمسلمين.

فإذا تركنا القول ونظرنا إلى العمل وجدنا أعمال اليهود كلها مصدقة لهذا الوصف، وإلا فما الذي كان يغيظ اليهود من انتصار المسلمين على قريش في وقعة بدر؟ ألم يكن ذلك أجدر أن يسرهم لأنه نصر لحلفائهم وجيرانهم وأقرب الناس إليهم ديناً وعقيدة؟ .. لكنها العداوة التي امتلأت بها نفوسهم فجعلت تفيض ثم تفيض حتى نطقت بها ألسنتهم وصرحت بها جوارحهم .. أليسوا بذلك قد نقضوا العهد بينهم وبين رسول الله وصاروا في عداد أعدائه، بعد أن كانوا ـ ولو بظاهرهم ـ في عداد أوليائه»[2].

---

(١) الآيات ١١٨ الى ١٢٠ من سورة البقرة.

(٢) ص ٣٤٠ من كتاب صور من حياة الرسول لأمين دويدار.

١١ - يهود بني قينقاع

كان انتصار المسلمين في غزوة بدر على الشرك مفاجأة مذهلة لليهود في الجزيرة العربية كلها. . . حركت في صدورهم مراجل الحقد، وحزّ في نفوسهم «أن ينتصر المسلمون وتقوى شوكتهم في المدينة وأن يعزّ الإسلام ويظهر على دينهم ويكون لرسوله دونهم الحظوة والمكانة، وكان صلى الله عليه وسلم يطمع في إيمانهم أكثر مما كان يطمع في إيمان المشركين، لأنهم أهل دين يدعو إلى التوحيد كما يدعو الإسلام إليه، وأهل كتاب يصدق القرآن كثيراً مما جاء به، وأهل علم يؤمنون بمنطق العقل ويحتكمون إليه، ولكن حرصهم على المكانة الدينية التي كانوا يتسمتعون بها، وعلى المنافع العاجلة التي كانت تجلبها لهم هذه المكانة دعا أحبارهم ورؤساءهم إلى حسد الرسول والطعن في رسالته، وإلى مناوأة الإسلام والأخذ في عداوته، وقد ظلت نفوسهم تغلي بالعداوة سراً حتى رأوا أمر الإسلام يستعلي بعد غزوة بدر فلم يطيقوا بعدها إسرار العداوة وأخذوا يستعلنون بها ويجاهرون، ومنذ

ذلك الحين أخذت العلاقة بين اليهود والمسلمين تنقلب إلى عداء ظاهر وأخذ هذا العداء يتطور ويستحكم، وأخذ اليهود يكيدون للإسلام ويأتمرون به ويعملون للقضاء عليه بكل ما يستطيعون من وسيلة.

وكان أول ما ظهر من بوادر هذه العداوة أنهم جزعوا أشد الجزع حين بلغهم نبأ انهزام قريش في وقعة بدر[1] ولم يصدق الشاعر اليهودي كعب بن الأشرف أنباء هزيمة قريش قائلاً: «هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها».

ولما تيقن الخبر هاجت نفسه وثارت ثائرته وأخذ يقطع الطريق بين مكة والمدينة مرسلاً قصائده يهجو بها محمداً ويؤلب عليه ويحض على قتله ويحرض على أصحابه ويشيد بالقرشيين ويرثي قتلاهم، ودفعه الحقد الأعمى إلى أن يطلق أشعاره الماجنة المكشوفة يجرح بها نساء المسلمين ويلغ في أعراضهن في إسفاف وتبذل وأجمع الصحابة على الانتقام منه، وأباح النبي

(١) ص ٣٣٥ من كتاب صور من حياة الرسول.

قتله وأهدر دمه، وكيف يستحق الحياة من يسب المسلمين في عرضهم ويقدح بالباطل في أعراض الفتيات العفيفات، فلا عجب بعد ذلك كله أن قال الرسول لأصحابه: من يأتيني برأس كعب بن الأشرف؟ فأسرع محمد بن مسلمة يجيب: أنا أقتله يا رسول الله وإن اعتصم بأعلى الحصون.

وليس الأمر أمر مقاتلة ونزال حتى يكون في مقدور ابن مسلمة أن يجهز على كعب، لذا عمد إلى الحيلة .. ووضع خطة ونفذها هو وصديقه أبو نائلة، كان فيها القضاء على حياة كعب اليهودي والإجهاز على مباذله ومجترحاته.

مجاهرة .. ومكابرة:

وهب يهود بني قينقاع مجاهرين بالعداوة، وكانوا بذلك كما قال ابن إسحق «أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله» وكانوا يسكنون بين المسلمين في وسط المدينة .. وذهب الرسول إليهم وجمعهم في سوق لهم بالمدينة وقال: «يا معشر يهود .. احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، واسلموا، فانكم قد علمتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في

كتابكم وعهد الله إليكم».

وفي صلف وكبرياء قالوا: يا محمد، انك ترى أنا قومك[1]!! لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، انا والله إن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس».

وتنزل آيات من القرآن الشريف ترد على يهود بني قينقاع مقالتهم، مبينة أن الأمر ليس أمر قوة حربية، وأن النصر ليس وليد خبرة بفنون القتال، ولكن النصر نصر الله، يؤيد من يقاتلون في سبيله، وآية هذا موقعة بدر كانت فيها الهزيمة لقريش مع وفرة عددها ومعداتها، والغلبة للمؤمنين المجاهدين في سبيل الله . .

وها هي ذي الآيات ١٢ ـ ١٣ من سورة آل عمران: **﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾**.

(١) هل تظننا مثل قومك وأنك ستتغلب علينا كما تغلبت عليهم.

ولم يكف بني قينقاع أنهم نقضوا ما كان بينهم وبين محمد من عهد، وأنهم لم يراعوا حق الجوار، بل عمدوا إلى الاثارة والتحرش والاستفزاز والتطاول على المسلمين، فنزل قول الله لمحمد: ﴿واما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين﴾ [1] نبذ محمد إليهم عهدهم وتحلل من ارتباطه السلمي معهم.

وفي سبيل نصرة الكرامة الانسانية أعلن محمد الحرب على بني قينقاع، بعد أن حاول صائغ يهودي منهم أن يسخر ويعتدي على كرامة امرأة مسلمة في سوق الصاغة بالمدينة، فاستغاثت فوثب رجل مسلم على الصائغ فأجهز عليه وتجمع يهود الصاغة على المسلم فقتلوه .. وتنادى المسلمون: إلى القتال.

وخرج المسلمون فحاصروا بني قينقاع مدة خمسة عشر يوماً ولم يخرج من ديارهم أحد ولم يدخل إليهم طعام ولا مدد، ولم تجرء القبائل اليهودية الأخرى المقيمة في المدينة على أن تمد يد العون .. وتوارى يهود بني النضير .. واحتجب يهود بني قريظة .. ولم يكن أمام يهود بني قينقاع إلا الاستسلام والتسليم.

(١) آية ٥٨ من سورة الأنفال.

وقد كان من رأي فريق كبير من المسلمين أن يبيدوا يهود بني قينقاع في هذه اللحظات.. غير أن هؤلاء اليهود طلبوا من رسول الله أن يخلي سبيلهم في نظير أن يجلوا عن المدينة ويرحلوا .. إلى الشام، آخذين معهم نساءهم وأطفالهم، تاركين سلاحهم وعتادهم.

ورأى رسول الله ﷺ أن الفرصة سانحة ليخلي قلب المدينة من هؤلاء اليهود الذين لم يراعوا عهداً ولا ذمة، فقبل طلبهم .. وخرجوا صاغرين أذلة إلى الشام .. حيث نزلوا بقرية على حدودها تسمى «أذرعات».

﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون. فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون. واما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين﴾[1].

جاء في طبقات ابن سعد .. أنه لما كانت غزوة

(١) الآيات ٥٥ ـ ٥٨ من سورة الأنفال.

بدر وأظهر بنو قينقاع البغي والحسد ونبذوا العهد وكانوا أشجع اليهود فأنزل الله: ﴿**واما تخافن من قوم خيانة**﴾ الآية، فقال رسول الله: أنا أخاف بني قينقاع!! فسار إليهم بهذه الآية.

١٢ - يهود بني النضير

كانت النكسة التي أصابت المسلمين في غزوة أحد متنفساً لليهود يروحون بها عما في قلوبهم من غيظ مكبوت وعداوة دفينة .. وأخذوا يجسمون ما أصاب المسلمين في «أحد» مما سموه هزيمة في هذه الغزوة، وما كانت إلا جولة من جولات الحرب ألحقت الهزيمة بالمسلمين وقتاً ثم ما لبث أن استعادوا مكانتهم وصمدوا واستماتوا وما استكانوا ..

وأخذ يهود بني النضير في المدينة ـ الذين أدمى قلوبهم إخراج إخوانهم بني قينقاع وقتل زعيمهم كعب بن الأشرف ـ أخذوا يطلقون الشائعات والأكاذيب ويروجون المزاعم، ليوهنوا العزائم، ويسمموا المشاعر، وكانوا يقولون، بعدما أصاب محمداً من جراح في أحد: «ما محمد إلا طالب ملك، ما أصيب بمثل هذا نبي قط أصيب في بدنه وأصيب في ماله».

ونزلت آيات من القرآن ـ في ذلك الوقت الذي

أعقب غزوة أحد ـ تكشف للمسلمين نوايا اليهود وتشقق سرائرهم وتفضح للمسلمين ما تنضح به أفئدة اليهود وما يضمرونه بين جوانحهم من بغض وحقد لدعوة محمد ولأصحابه: ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل. وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون. وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون. لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون﴾[1]. وذهب محمد مع وفد من أصحابه إلى محلة بني النضير «يستعينهم على دية بعض القتلى، من بني عامر .. (للجوار الذي كان رسول الله عقد لهما وكان بين بني

(١) الآيات ٥٩ ـ ٦٣ من سورة المائدة.

النضير وبين بني عامر عقد وحلف)[1] فلما أتاهم رسول الله يستعينهم في دية القتلى قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه».

وكان محمد آنئذ يجلس إلى جنب جدار بيت من بيوتهم وبجواره النفر من أصحابه فيهم أبو بكر، وعمر، وعلي وحاول بنو النضير أن يهتبلوا هذه الفرصة لاغتياله .. فخلا بعضهم إلى بعض .. وندت منهم بعض التصرفات التي رابت محمداً وجعلته كله يقظة وانتباهاً وحذراً وترك محمد مكانه مسرعاً من غير أن يعلم أحد وجهته وترك أصحابه الذين كانوا يظنون أنه قام لبعض شأنه.

وأسقط في أيدي بني النضير بعد أن كانوا على وشك تنفيذ مخططهم .. وبعد أن اتفقوا سراً على أن يصعد أحدهم (وهو عمرو بن جحاش بن كعب) إلى أعلى البيت ليلقى حجراً ضخماً على رأس الرسول ومن معه ..

وفوت الرسول الملهم المؤيد بنصر الله ـ فوت

(١) ص ٢٦٧ جـ١ من كتاب «تهذيب سيرة ابن هشام» لعبد السلام هارون.

عليهم الفرصة بتصرفه السريع العاجل، وأوقعهم في الحيرة .. هل ينفذون الخطة فيمن بقي من أصحاب محمد. ولكنهم متأكدون أن بقية المسلمين لن يسكتوا على هذا الغدر .. وإذا تركوهم فكيف يواجهونهم بعد أن يلتقوا بمحمد ويعرفوا منه الأنباء؟!

واستبطأ الصحابة عودة رسولهم .. ثم غادروا مجلسهم، وقاموا في طلبه .. وفي طريقهم من محلة بني النضير إلى المدينة صادفوا رجلاً مقبلاً نحوهم .. ومنه علموا أن محمداً في مسجد المدينة، فلحقوا به .. وأخبرهم الخبر .. وأمرهم بالاستعداد للحرب، والتوجه إلى بني النضير حيث يقيمون، وأمر محمد بن مسلمة وقال له: «إذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم أن رسول الله أرسلني إليكم، أن اخرجوا من بلاده، لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي، لقد أجلتكم عشراً، فمن رؤي بعد ذلك ضربت عنقه».

وانتهز هذه الفرصة المنافقون وعلى رأسهم «عبد الله بن أبي بن سلول» فأغروا يهود بني النضير بأن

يعتصموا بحصونهم ويثبتوا ضد محمد ويصمدوا أمامه وقالوا: اننا معكم، لن نسلمكم: إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم من البلاد خرجنا معكم .. ويهود بني قريظة معكم .. وحلفاؤكم من القبائل رهن إشارتكم.

واقتنع «حيي بن أخطب» كبير اليهود بكلام «عبد الله بن أبي بن سلول» كبير المنافقين .. وأمر بأن تدعم الحصون، وتحصن الأزقة بالحجارة والمتاريس، وينقل إليها الماء والمؤونة .. وأرسلوا إلى رسول الله قائلين: لا نخرج من ديارنا .. واصنع ما بدا لك. وكبر محمد قائلاً: الله أكبر حاربت يهود .. وكرر المسلمون وراءه التكبير .. وساروا متجهين إلى بني النضير الذين لم يكن منهم إلا أن اعتصموا في حصونهم عشرة أيام كاملة أيسوا فيها من الغلبة والنصر، إذ لم يف «ابن أُبي» بوعده لهم .. ولم يقدم لهم اخوانهم يهود بني قريظة عوناً ولا مدداً وامتد الحصار ليالي أخر .. تركوا خلالها بعض حصونهم وديارهم الأمامية بعد أن خربوها وهدموها .. واعتصموا بما وراءها من حصون أمنع، وديار أقوى وأمتن.

ولأجل أن يقطع محمد كل أمل عندهم في المقاومة أمر أصحابه بأن يقطعوا نخل اليهود ويحرقوه .. وجزع اليهود وصاحوا مبهوتين: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟ وغدا اليهود المحصورون بين عاملين: بقية من أمل علها تتحقق بعد طول انتظار فيقدم إلى نجدتهم من يأخذ بيدهم، ونظرة واقعية تريهم نخيلهم يحرق ودماءهم تهدر وثرواتهم وأرواحهم على وشك الضياع.. وتغلب اليأس على بقية الأمل فتقدموا إلى محمد قائلين: نخرج من بلادك.

وقال محمد: لا أقبله اليوم، ولكن اخرجوا منها ولكم دماؤكم، وما حملت الإبل من أموالكم إلا السلاح والدروع وتركوا الأرض والنخيل والدروع والسلاح .. أما المنازل فقد خربوها جميعاً بأيديهم قبل الرحيل .. وحملوا ما استطاعوا حمله من أنقاضها على ظهور أبلهم .. وخرجوا يجرون أذيال الذلة والخزي نحو يهود خيبر .. ونحو الشام وما كان لزعيم اليهود المهزوم «حيي بن أخطب» أن يبتعد عن

المدينة ويعيش في زوايا النسيان يجتر هزيمته وحقده لذا نزل لدى يهود «خيبر» لعل الفرصة تواتيه فينتقم من محمد . .

ونزلت سورة بأسرها من القرآن هي سورة «الحشر» تتحدث عن بني النضير وما أصابهم الله به من نقمته: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار﴾. ثم تمضي آيات السورة متحدثة بعد ذلك عن الغنائم وعن موقف المنافقين: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون. لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لا ينصرون. لأنتم أشد

رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ..﴾ إلى آخر الآيات.

١٣ ـ اليهود . . والأحزاب

«لم يكن خروج بني النضير من المدينة بالأمر الهين على نفوسهم، ولا بالأمر الذي تنتهي آثاره بمجرد انتهائه، فقد كانت المدينة موطنهم وموطن آبائهم وأجدادهم منذ عهود بعيدة، وكان الأنصار من الأوس والخزرج هم الطارئين عليهم في عهود الآباء والأجداد، كما كان المهاجرون من قريش هم الطارئين عليهم في أيامهم الحاضرة.

وعلى رغم ما كان يبدو عليهم من مظاهر التجلد والاغتباط عند خروجهم فإن قلوبهم كانت تغلي بالحقد على رسول الله وأصحابه، أولئك الذين أخرجوهم من ديارهم كارهين، وأرغموهم على ترك أرضهم ومنازلهم وحصونهم وأسلحتهم وزروعهم وثمارهم وتجارتهم وأموالهم، ولم يسمحوا لهم أن يأخذوا من كل ذلك إلا بمقدار ما تستطيع أن تحمله الإبل من الأموال والمتاع، فكان كل ما يفكرون فيه أن ينتقموا من أولئك الأعداء وأن يمكنوا لهم ضربة

قاسية يستطيعون بها القضاء عليهم، أو يستطيعون بها على الأقل أن يخرجوهم من حيث أخرجوهم.

هذا إلى ما كان يملأ قلوبهم من الحسد والبغضاء لذلك الرسول الذي جاء بدعوته إلى مدينتهم فانتزع منهم تلك المكانة الدينية التي كانوا يستمتعون بها، والتي كانوا يدلون على العرب المشركين في المدينة وفي غيرها من بلاد العرب وقبائلها. وقد أخذت هذه الدعوة تظهر وتنتشر ويزداد أنصارها على الأيام كثرة وقوة حتى استطاعوا أن يخرجوهم منها فريقاً بعد فريق، وهم أبناء البلاد وأهلها وأصحاب الرأي والمكانة فيها.

من أجل هذا وذاك طوى اليهود أنفسهم على فكرة الانتقام، وجعلوا يلتمسون الفرصة للقضاء على محمد وصحبه وعلى هذه الدعوة التي زاحمتهم في دينهم وغالبتهم في أوطانهم... وكانوا يعلمون أن قريشاً ومن حولهم من الأعراب كارهون لهذه الدعوة، ليس منهم إلا من يناوئها ويود القضاء عليها وإن اختلفت بينهم الأسباب وتنوعت المقاصد فبذل بنو النضير جهودهم ليؤلفوا بين أولئك الأحزاب ويكونوا منهم

كتلة واحدة ينقضون بها على محمد وصحبه، فيضربونهم ضربة رجل واحد، فيقضون عليهم في ساعة من نهار ثم يفرغون من أمرهم، وبذلك يستريح العرب واليهود جميعاً ويعود السلام والأمن والطمأنينة إلى الجزيرة كما كان من قبل هذه الدعوة»[1].

وترامت أنباء هذا التكتل والتحزب إلى محمد وأصحابه في المدينة .. فجمعهم وتشاور معهم، وقال سلمان الفارسي: «يا رسول الله انا كنا بأرض فارس إذا خفنا العدو خندقنا عليه» وقام الرسول وأصحابه إلى شمال المدينة يحفرون الخندق .. ولقوا في ذلك الكثير من المشقة والجهد .. وحين تم حفر الخندق ظهرت طلائع الأحزاب مقبلة على المدينة .. ثم اضطرت هذه الجيوش الزاحفة أن تقف أمام هذاالسد العجيب. وأن تعيد رسم خطتها الحربية من جديد، إذ لم يكن لها عهد بهذا اللون من الدفاع الحربي..

ووقفت كتائب الأحزاب أمام الخندق حائرة لا

---

(١) ص ٤١٧ من كتاب سيرة الرسول.

تدري ماذا تصنع .. ووقف الجيشان أياماً يرقب كل منهما الآخر، وطال التربص والانتظار بين الجيشين، وخشي اليهودي الماكر «حيي بن أخطب» أن تفلت الفرصة من بين يديه وأن تتفرق الأحزاب دون حرب محمد، وقد بذل قصاراه في تجمعهم وإن أفلتت هذه الفرصة فقلما تعود .. وخرج «حيي» بخطة جديدة يعرضها على الأحزاب المتجمعة التي يخشى أن تتفرق وتعود أدراجها إلى مكة من غير قتال .. وقال لهم: إن اخواننا يهود بني قريظة .. وهم يقيمون في جنوب المدينة الشرقي وحصونهم تحمي المدينة من هذه الجهة وبين المسلمين وبينهم عهد وموادعة .. موادعة سليمة سلبية لا يناصرونه على عدو ولا يناصرون عدواً عليه .. فلو غدر يهود بني قريظة بمحمد ونقضوا عهده لمكنتنا قريظة من فتح الطريق لدخول المدينة من الناحية الجنوبية .. وآمن القادة بخطة اليهودي .. وأمنوا عليها واقتنعوا بها .. وسارع «حيي بن أخطب» قاصداً حصن «كعب بن أسد» زعيم بني قريظة وعظيمها .. وأغلق كعب باب حصنه عليه، عندما علم بمقدم حيي وبخطته وعندما تمثلت أمام ناظريه نهاية قومه إذا ما نقضوا العهد

ومكن الله للمسلمين من النصر والغلبة على الأحزاب.

ولم ييأس حيى .. وظل يحتال حتى فتح له باب الحصن، ودخل على كعب قائلاً: «يا كعب، إنما جئتك بعز الدهر .. جئتك بقريش وسادتها، وغطفان وقادتها قد تعاهدوا على أن يستأصلوا محمداً ومن معه».

فقال له كعب: إنما جئتني بذل الدهر .. ويحك يا حيي... دعني، فلست بفاعل ما تدعوني إليه، فاني لم أر من محمد إلا وفاء وصدقاً فلماذا الغدر؟!!

وكما احتال «حيي» بادىء الأمر لدخول حصن كعب احتال آنئذ لدخول قلبه .. وما زال يعده ويمنيه ويغريه ويعرض عليه ما أصاب اليهود من محمد ومن صحبه، وجسم له ما يوشك أن يحل باليهود عامة إذا ما انتصر محمد .. ويصف له قوة الأحزاب التي لولا الخندق لقضت على محمد ودعوته في لحظات ..

وتحرك الحرص اليهودي في قلب كعب وقال

لحيي: وماذا يكون إذا ارتدت الأحزاب ولم تقاتل محمداً؟

قال له «حيي»: أعطيك عهداً على أن نرجع نحن اليهود جميعاً إليك وإلى قومك ونتكتل معكم ونكون كلنا على قلب رجل واحد. وتحركت في نفس كعب يهوديته .. فأذعن .. وقبل ما طلبه «حيي» ونقض عهده .. وخرج من حياده.

واهتز المسلمون حينما علموا أن بني قريظة خانوا العهد .. وغدروا بالوعد، ونقضوا الميثاق .. وكشفوا الجبهة الجنوبية من المدينة لأعداء الله ..

وبعث محمد إليهم سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة ليردوهم إلى عهدهم .. فوجدوهم وكلهم حقد وتطاول ونيل من رسول الله وصحابته، وقالوا لا عهد لمحمد عندنا!!

وظل سعد يبين لهم مغبة النكث والنكوص، ومآل الغادرين الخائنين، وقال لهم فيما قال: «أخشى عليكم مثل يوم النضير وأمر منه» وأجابوه: لقد أخرج محمد اخواننا بني النضير وأجلاهم عن المدينة ..

فليرجعهم أولاً إلى ديارهم .. ثم بعد ذلك نسمع منكم ..

وانطلقوا إلى كعب .. وأخذوا يذكرونه بعهد رسول الله، فقال: من رسول الله!! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد!! واهتزت قلوب المسلمين .. واهتزت صفوفهم .. وكانوا كما تصورهم هذه الآيات من سورة الأحزاب[1]: ﴿ .. **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً**﴾.

ومما زاد الطين بلة أن كشف المنافقون عن حقيقتهم، وأزالوا النقاب من على وجوههم، وبعثوا صيحات اليأس من كل مكان في وجوه المؤمنين، وكانوا أداة تعويق وتثبيط، قالوا: كان محمد يعدنا بأن نفتح كنوز كسري وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه!! وحضوا الناس على الفرار، وعدم المقاومة .. ﴿**إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم**

---

(١) الآيات ٩ ـ ١١ من سورة الأحزاب.

مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾[1].

وتأججت العاطفة الحربية لدى الأحزاب المناوئة لمحمد وصحبه، وبلغت ذروتها بعدما بلغها من نجاح خطة اليهودي الأعظم «حيي بن أخطب». . وأشعلوا النيران ترتفع ألسنتها ولهيبها وفحيحها على طول حافة الخندق ليرهبوا المسلمين، وليضعفوا روحهم ويخمدوا لهيب الإيمان بين جوانحهم . .

ووقع المسلمون بين عدوين: عدو خارجي يحاول في يأس أن يقتحم الخندق، وعدو داخلي يستقطب حوله المنافقين وخونة اليهود المتكتلين في حصونهم جنوبي المدينة.

وبدأ اليهود يقومون بدورهم المخرب الهدام، فنزلت جماعة منهم من حصونهم تريد قلب المدينة وإرهاب أهلها، وتقدم يهودي حول حصن إسلامي في المدينة كانت فيه «صفية بنت عبد المطلب» عمة رسول الله ولفيف من الأطفال والنساء ومعهم الشاعر «حسان بن ثابت» وقالت صفية لحسان: إن هذا اليهودي يحوم يا حسان حول الحصن كما ترى، واني

---

(١) آية ١٢ من سورة الأحزاب.

والله ما آمنه أن يدل اليهود على عوراتنا، ورسول الله وأصحابه قد شغلوا عنا وهم في قتال المشركين، فأنزل إليه فاقتله.

فأجابها حسان: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، فما للشاعر والقتال!! وأخذت صفية عموداً من حديد .. ونزلت من الحصن. وضربت رأس اليهودي حتى قتلته.. فلما رجعت قالت لحسان: يا حسان انزل إليه فجرده من سلاحه ،انزع ملابسه واسلبه، فانه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل. فقال حسان: ما لي يا ابنة عبد المطلب من سلبه حاجة!!

وهمت بنو قريظة بالإغارة على المدينة تحت جنح الظلام ..

وهكذا اليهود لا يجابهون الموقف، بل يعملون في الظلام ..

وجاء الخبر إلى رسول الله، فأرسل إليهم من الخطوط الأمامية كتيبة إسلامية قوامها خمسمائة مقاتل، لحراسة المدينة ومدافعة يهودها، وردعهم إذا ما بدرت منهم بادرة ..

وأحاط المشركون بالمسلمين .. وجاء المسلمون إلىٰ رسول الله يسألونه: هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر، فقال: نعم، قولوا: «أللهم أستر عوراتنا وآمن روعاتنا».

ولاذ محمد وأصحابه بالثبات والصبر، وهم يرون الأعداء ينوشونهم من كل مكان..

وكان لا بد لهم ـ وهم المؤمنون ـ بأن يدافع الله عنهم: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾[1] ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر﴾[2].

وتدخلت العناية الإلهية .. وأوقع الله الفرقة في صفوف الأعداء من الأحزاب، وانفصم ما كان بينهم من عرى ..

---

(١) آية ٣٨ من سورة الحج.

(٢) آية ٣١ من سورة المدثر.

١٤ ـ يهود بني قريظة

كان غدر يهود بني قريظة ونقضهم معاهدتهم مع محمد هو الثغرة التي لولاها لما استطاع المشركون أن يجدوا إلى المسلمين منفذاً. «فقد وقفوا أمام الخندق طويلاً، وطافوا به كثيراً وحاولوا غير مرة أن يجدوا فيه منفذاً ينفذون منه إلى المسلمين، ولكن المسلمين كانوا من اليقظة والتمكن بحيث استطاعوا أن يسدوا عليهم كل ثغرة، وأن يردوا إليهم كل محاولة.

ولقد كان من الجائز أن يسأم المشركون من هذه الحالة، وأن يملوا الوقوف أمام هذا الخندق، وأن يتملكهم اليأس من الوصول إلى معسكر المسلمين، بعدما حاولوا وحاولوا فلم يستطيعوا، وكان من الجائز أن يدفعهم اليأس والملل إلى الرجوع إلى ديارهم دون أن ينالوا ارباً مما كانوا يريدون بالمسلمين، ولكن دخول بني قريظة في زمرة الأحزاب، ونقضهم العهد مع المسلمين، كان ـ ولا شك ـ هو السبب الذي أعاد الأمل قوياً إلى نفوس المشركين، فعلت به روحهم

المعنوية، وازداد نشاطهم، واشتد ضغطهم على معسكر المسلمين حتى أرهقوهم، وكان هو العامل الأكبر فيما أصاب المسلمين من زلزلة وخوف، وما حدث في صفوفهم من خلخلة واضطراب، وما جعل المنافقين والذين في قلوبهم مرض ينتهزونها فرصة فيخذلون بين الناس ويشيعون اليأس في القلوب ويقولون كما حكى الله عنهم: ﴿**ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً**﴾ ويتداعون إلى الفرار قائلين: ﴿**يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة، وما هي بعورة ان يريدون إلا فراراً**﴾(١).

«على أن هذا الغدر الذي أوشك أن يكون فيه فناء دولة الإسلام لم يكن له من سبب يدفع إليه إلا الحفيظة الكامنة في نفوس اليهود على المسلمين، فقد كان المسلمون مقيمين على الوفاء والصدق لعهدهم لبني قريظة، حتى لقد كان هذا الوفاء والصدق هو الحجة البالغة التي حاول «كعب بن أسد» أن يحتج بها على «حيي بن أخطب» وهو يراوده على نقض العهد

---

(١) الآية ١٣ من سورة الأحزاب.

مع رسول الله ﷺ، إذ يقول: «ويحك يا حيي، دعني فلست بفاعلٍ ما تدعوني إليه، فاني لم أر من محمد إلا وفاء وصدقاً!!».

فلو أنه كان هناك من جانب المسلمين سبب يدعو بني قريظة إلى هذا الغدر لكان لهم شيء من العذر فيما فعلوا، فكيف وهو الغدر الذي يجزى على الصدق والوفاء؟ وكيف وهو الغدر الذي أريد به القضاء على دولة بأكملها وعلى دين الحق الذي أرسل الله به خاتم النبيين ليظهره على الدين كله؟ وكيف وقد كان العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ يقضي عليهم أن يدافعوا مع المسلمين عن مدينتهم، لا أن يخونوهم ويغدروا بهم في أصعب الظروف وأشدها حرجاً؟!

الحق أن عمل بني قريظة هذا لم يكن نقضاً لعهودهم وحسب، بل كان غدراً وخيانة في وقت معاً، حتى لقد استنكره رجال من رجالهم وهم يتحاورون فيما جاءهم به «حيي بن أخطب» فقالوا: «إذا لم تنصروا محمداً فدعوه وعدوه».

ثم هو فوق ذلك غدر دنيء وخيانة سافلة لأنه

طعن من الخلف لمن أدار إليك ظهره وهو واثق بك مطمئن إلى أمانتك ومروءتك»[1].

وتململت غطفان معلنة استياءها من طول الحصار وما لاقته من عنت ونصب تسبب فيهما حيي بن أخطب واليهود الذين معه، وعزمت على الانسحاب.

وفي الليل عصفت الريح .. وأزت واشتدت، ودوى الرعد، وخيم الظلام، وهطل المطر .. وقويت العاصفة وهي تسري بين معسكرات الأحزاب تقتلع خيامهم، وتكفأ قدورهم، وتطفىء نيرانهم، وتدفع الرجال دفعاً إلى الوراء .. إلى الصحراء .. إلى الفرار.

وخيل إليهم وهم يتولون مهزومين أن المسلمين في أعقاب تلك العاصفة ودوت صيحات الفرار من كل مكان ثم تلاشت الصيحات مع صوت العاصفة الهادر.

وما أن أشرق الصبح حتى عفى كل أثر لأعداء الله، ورفع أولياء الله أكف الضراعة والدعاء لله ..

---

(١) ص ٤٣٤ من كتاب صور من حياة الرسول لأمين دويدار.

وهتف محمد وهتف أصحابه من ورائه: «لا اله إلا الله صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده».

وقال القرآن: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله. وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾[1].

(١) آية ٢٢ من سورة الأحزاب.

١٥ ـ انتقام . . واستسلام

وكان من الطبيعي ألا يأمن المسلمون جانب اليهود بعد ذلك.

وكان من الطبيعي كذلك ألا يدع المسلمون تلك الشوكة اليهودية في جنب المدينة الإسلامة تؤلم وتؤرق.

وكان لا بد من غزو بني قريظة في حصونهم، ونادى رسول الله ﷺ في المسلمين قائلاً: « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلن العصر إلا في بني قريظة».

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة اعتصم خلالها اليهود بحصونهم، ولم يظهروا القتال، وجبنوا عن لقاء المسلمين . . حتى أجهدهم الحصار وأرسلوا لرسول الله ﷺ طالبين أن يخرجوا مهاجرين بما يستطيعون حمله من مال دون سلاح ـ كما خرج إخوانهم بنو النضير من قبل إلى أرض الشام . . فرفض رسول الله ﷺ هذا المقترح، «ولما أيقنوا بأن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال

كعب بن أسد: يا معشر يهود، قد نزلَ بكم من الأمر ما ترون، واني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم. قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتم علي هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وان نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟! قال: فإن أبيتم علي هذه فإن الليلة ليلة السبت، وأنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة، قالوا: أنفسد سبتنا علينا ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ؟! قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً»[1].

(١) ص ٣٠٢ من كتاب تهذيب سيرة ابن هشام جـ٢.

وأمام صلابة المسلمين وقوتهم لم يسع يهود بني قريظة إلا أن ينزلوا على حكم الرسول فاستسلموا . .

وأراد بعض المسلمين ـ من قبيلة الأوس ـ أراد من رسول الله ﷺ أن يترفق في حكمه على اليهود . . فقال لهم: ألا ترضون أن يكون واحد منكم هو الحكم بيني وبين يهود بني قريظة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فقولوا لهم فليختاروا منكم من يشاءون. فاختار اليهود «سعد بن معاذ» رئيس الأوس وسيدها وكان سعد آنئذ بعيداً عن ميدان المناقشة . . كان جريحاً يعالج في خيمة «رفيدة» (أول ممرضة إسلامية كانت تعالج جراح المسلمين الذين أصيبوا في المعركة في خيمة ملحقة بالمسجد) . . واستدعي سعد لمجلس رسول الله ﷺ ولما قدم قال له الرسول: احكم فيهم يا سعد.

قال: الله ورسوله أحق بالحكم.

وقال سعد لبني قريظة: أترضون بحكمي؟ قالوا: نعم، ونحن اخترناك لذلك.

فقال: اني أحكم فيهم بأن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء.

فعقب رسول الله عليه السلام بقوله: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات.

وأمر الرسول بحفر خندق .. وجيء باليهود جماعات فضربت أعناقهم، وقذفت جثثهم في الخنادق.

يقول القرآن عن ذلك: **﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم[1] وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديراً﴾**[2].

وقد أظهر بعض اليهود من الجلد أمام القتل ما تراه في حديث «حيي بن أخطب» (وكان قد لجأ إلى

(١) الصياصي: الحصون.

(٢) الآيات ٢٥ ـ ٢٧ من سورة الأحزاب.

بني قريظة بعد جلاء الأحزاب وفاء بعهده مع كعب بن أسد) حين قدم لتضرب عنقه، فنظر إليه النبي وقال: ألم يخزك الله يا حيي!!

فأجاب حيي: كل نفس ذائقة الموت ولي أجل لا أعدوه، ولا ألوم نفسي على عداوتك.

ثم التفت إلى الناس وقال: أيها الناس، انه لا بأس بأمر الله: كتاب، وقدر، وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل.

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل[1]: «... وفي رأينا أن دم قريظة معلق في عنق «حيي بن أخطب» وان كان قد قتل معهم، فهو قد حنث بالعهد الذي عاهده قومه من بني النضير حين أجلاهم محمد عن المدينة، ولم يقتل منهم بعد النزول على حكمه أحداً، وهو بتأليبه قريشاً وغطفان وتحزيبه العرب كلها لقتال محمد قد جسم العداوة بين اليهود والمسلمين وجعل هؤلاء يعتقدون أن بني إسرائيل لا تطيب نفوسهم إلا باستئصال محمد وأصحابه، وهو

(١) ص ٣٠٩ من كتابه حياة محمد.

الذي حمل بني قريظة من بعد ذلك على نقض عهدها والخروج من حيادها، ولو أنها بقيت عليه لما أصابها من الشر شيء، وهو الذي دخل حصن بني قريظة بعد ارتحال الأحزاب ودعاهم لمواجهة المسلمين والدفاع عن أنفسهم بمقاتلتهم، ولو أنهم نزلوا على حكم محمد منذ اليوم الأول واعترفوا بخطئهم في نقض عهدهم لما أهدرت دماؤهم وضربت أعناقهم، لكن العداوة بلغت من التأصل في نفس حيي وانتقلت منه إلى نفوس بني قريظة حداً جعل سعد بن معاذ نفسه، وهو حليفهم، يؤمن بأنهم إن أبقى على حياتهم فلن تهدأ لهم نفس حتى يؤلبوا الأحزاب من جديد وحتى يجمعوا العرب لقتال المسلمين، وحتى يقتلوهم عن آخرهم إن ظفروا بهم، فالحكم الذي أصدره على قسوته وشدته إنما كان متأثراً فيه بالدفاع عن النفس وأعتباره بقاء اليهود أو زوالهم مسألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين».

١٦ - يهود خيبر

تملكت اليهود - بعد هزائمهم المتكررة - فكرة سيطرت عليهم، وهي: القضاء على الإسلام والانتقام من أهله وكلما رأوا تمكين الله لدينه وأهله ازدادت هذه الفكرة عمقاً وتأصلاً في نفوسهم.

فلا عجب ان لم يستسلموا بعد هاتيك الهزائم، ولا عجب ان لم تضع نهاية حياة زعيمهم «حيي بن أخطب» حداً لهذه العداوة المتأججة في صدورهم.

ولما تولى «أسير بن رزام» زعامة اليهود في خيبر أخذ يعد العدة لحرب محمد ومن معه.

وعلم الرسول بنوايا اليهود .. وكان عليه السلام دائماً لا يبدأ بعدوان، ولا يرد عليه إلا بعد أن يمد يد السلام، لذا أرسل وفداً إسلامياً على رأسه «عبد الله بن رواحة» مع لفيف من الأنصار المسلمين .. وتوجه الوفد إلى «خيبر» يدعو زعيمها اليهودي إلى

(١) خيبر - واحة خصبة تقع شمال المدينة تبع عنها مسيرة خمسة أيام بالإبل.

السلام والصفاء والأمن والأمان والبعد عن شر الحرب وويلاتها، وبين الوفد الإسلامي لزعيم اليهود نتائج الحرب وما تتمخض عنه من إفساد وتدمير، وعرضوا عليه أن يقدم معهم الى المدينة ليتحالف مع الرسول وصحابته ويعيش الجميع تحت راية هذا التحالف في وئام وأمان . .

واستجاب زعيم اليهود لمقالة عبد الله بن رواحة . . وخرج مع المسلمين في لفيف من أنصاره وأهله قاصداً المدينة حيث رسول الله ﷺ . .

وفي الطريق حاول رئيس الوفد اليهودي في حركة سريعة خاطفة أن يهوي بسيفه على رأس «عبد الله بن رواحة» الذين فطن لهذه المحاولة النكراء فصاح في وجهه: «أغدراً يا عدو الله» ومال بسيفه فوق عنق اليهودي الغادر فأطاح به، وتبعه أعناق رفاقه اليهود بعد أن مال عليهم المسلمون فأردوهم . .

وكانت هذه المحاولة الفاشلة دعوة للحرب، ورفضاً للمهادنة والتعاون، وتأهب كل من المسلمين واليهود للمناجزة . .

وأرسل «عبد الله بن أبي» زعيم المنافقين في المدينة إلى يهود خيبر يقول لهم أن محمداً سائر إليكم فخذوا حذركم. وأعجبتهم قوتهم .. ومناعة حصونهم ووفرة أموالهم فكانوا يقولون: محمد يغزونا .. هيهات .. هيهات!! إن حصوننا المنيعة كفيلة برده وردعه ..

وكانت جموع اليهود في خيبر من أقوى الطوائف الاسرائيلية قوة وأكثرها مالاً وعتاداً .. وكانت لهم حصون ومعاقل على رؤوس الجبال ..

وقسم اليهود خيبر إلى ثلاث مناطق:

الأولى منطقة «النطاة» وحشروا في حصونها الجند مزودين بالسلاح والعتاد.

وأدخلوا أموالهم وأولادهم في حصون المنطقة الحربية الثانية «الكتيبة»..

أما المنطقة الثالثة «منطقة الشق» فأعدوها لتكون ملجأ لهم عند انسحابهم ..

واليهود بطبيعتهم جبناء يخشون الحرب في الميدان ...ا لوجه لا يحاربون إلا أمام الحصون حتى إذا ما

درات عليهم الدائرة رجعوا إلى حصونهم فأغلقوها عليهم، والقرآن يقرر ذلك ويسجله عليهم فيقول:

﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة، أو من وراء جدر، بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾[1].

وخرج الرسول إلى خيبر ـ في شهر محرم سنة سبع من الهجرة ـ ومعه ألف وستمائة من أصحابه لملاقاة قرابة عشرة آلاف يهودي في خيبر . .

وعسكر الرسول قريباً من حصون منطقة «النطاة» فقال له الحباب بن المنذر:

ـ إن أهل النطاة ليس قوم أبعد ولا أعدل رمية منهم، وهم مرتفعون علينا فتحول يا رسول الله. فقال له الرسول: أشرت بالرأي. وانتقل بجنوده إلى مكان بعيد من وقع النبال فعسكروا فيه وشاهد يهود خيبر جيش المسلمين فعادت إليهم طبيعتهم الحربية فلجأوا إلى الحصون يعتصمون بها، وكما قال القرآن: ﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من

---

(١) الآية ١٤ من سورة الحشر.

حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب﴾[1] وفتح النبي والمسلمون حصون المنطقة الأولى في خيبر حصناً من وراء حصن بعد حصار ومقاومة وجهاد وجلاء.

وارتد اليهود الى منطقتهم الثانيـة «الكتيبة» معتصمين فيها بحصن «القموص» .. واتجه رسول الله بأصحابه إلى هذا الحصن فحاصره عشرين ليلة كتب الله في نهايتها النصر للمسلمين .. وقد اقتيد أسرى من في هذا الحصن من النساء والذراري، كانت من بينهم «صفية» بنت «حيي بن أخطب» التي خيرها الرسول بين أن يعتقها ويتزوجها، أو يردها إلى أهلها، فاختارت أن تكون له زوجة. وغدت من «أمهات المؤمنين» وما أن وصلت أنباء الصلح بين محمد ويهود خيبر إلى مسامع القبائل اليهودية المجاورة حتى أسرع يهود وادي القرى، ويهود فدك إلى محمد يصالحونه على ما صالح عليه أهل خيبر من تركهم يعملون في مزارعهم وحقولهم على أن يعطوه نصف ثمارها .. وتم الصلح مع هذه القبائل سلمياً من غير قتال.

---

(١) الآية ٢ من سورة الحشر.

«وقد عامل محمد يهود خيبر بغير ما عامل به بني قينقاع وبني النضير، حين أجلاهم عن أرضهم، لأنه آمن بسقوط خيبر بأس اليهود. وآمن بأنهم لن تقوم لهم قائمة بعد ذلك أبداً»[١].

وبهذا الصلح خضع اليهود العرب لسلطان محمد، وأصبح المسلمون بمأمن من مناورات اليهود ومؤامراتهم بعد انهيار سلطانهم السياسي.

«على أن إذعان أهل خيبر وسائر اليهود لمصيرهم في شبه الجزيرة لم يقع مرة واحدة بعد هزيمتهم، بل لقد كانت نفوسهم في أثر الهزيمة ملأى بالغل والغضب أخبث الغضب، أهدت زينب بنت الحارث اليهودية زوجة الرئيس اليهودي «سلام بن مشكم» إلى محمد شاة بعد أن اطمأن وبعد أن وقع الصلح بينه وبين أهل خيبر فجلس وأصحابه حوله يأكلون وتناول عليه السلام ذراع الشاة فلاك منها مضغة فلم يسغها، وكان بشر بن البراء معه قد تناول منها مثل ما تناول فأما بشر فأساغها وازدردها وأما الرسول فلفظها وهو يقول: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، ثم دعا

(١) من كتاب حياة محمد ص ٣٥٩.

بزينب فاعترفت وقالت: لقد بلغت من قومي ما لم يخف على أحد فقلت: إن كان محمد ملكاً استرحت منه وإن كان نبياً فسيخبره الله.

ومات بشر من أكلته هذه، وعفا الرسول عن زينب وقدر لها عذرها بعد الذي أصاب أباها وزوجها»[1].

(١) ص ٣٦٠ المرجع السابق.

١٧ ـ ليسوا سواء

على أن القرآن نفسه قد حكم بأن هناك فريقاً من هؤلاء الكتابيين آمن واهتدى واستجاب لدعوة محمد، ورأى فيها تحقيقاً لبشارات الكتب السماوية التي نزلت على أنبياء بني إسرائيل، والتي بشرت بمبعثه على لسان موسى وعيسى: **﴿يا بني إسرائيل اني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾**(١).

وكان من الأحبار اليهود الذين أسلموا وأذعنوا «الحصين» وسماه الرسول «عبد الله بن سلام» و«مخيريق» الذي اشترك مع الرسول في غزوة أحد، والذي دعا قومه إلى الإيمان بمحمد ونصرته، فقال: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق. فقالوا: إن اليوم يوم السبت فقال لهم مخيرق: لا سبت لكم .. ثم أخذ سلاحه وخرج إلى المعركة بأحد وهو يقول: إن قتلت في هذا اليوم فأموالي

---

(١) آية ٦ من سورة الصف.

لمحمد يصنع بها ما يشاء .. فقاتل حتى قتل، وغدت بساتينه السبع وقفاً على الإسلام وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول في شأنه: «مخيريق خير يهود».

وعبد الله بن سلام كان قد كتم إسلامه بادىء الأمر ليسلم من أفاعيل قومه؛ سمعته عمته وهو يكبر فرحاً بقدوم الرسول إلى المدينة فقالت له: خيبك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت على ما فعلت!!

ويحدثنا عبد الله بن سلام فيقول: كتمت إسلامي عن اليهود، ثم أتيت رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله ان اليهود قوم بهت (كذابون مزورون) واني أحب أن تدخلني وتخفيني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم، ثم تسألهم عني حتى تعرف حكمهم علي ومنزلتي فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي لأنهم لو عرفوا أني أسلمت لسلقوني بألسنة حداد ولأوسعوني بهتاناً ومثالب.

وأدخله الرسول ﷺ في بعض بيوته ودخل عليه اليهود فكلموه وسألوه .. ثم سألهم هو عليه السلام

عن مكانة الحصين ومنزلته بينهم فقالوا: سيدنا وابن سيدنا ومن خيرة علمائنا وأحبارنا ..

قال الحصين: فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاء به محمد فوالله انكم لتعلمون أنه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته فاني أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه. فقالوا: كذبت .. ثم وقعوا بي، فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت وأهل غدر وكذب وفجور!!

والقرآن يسجل إنصافاً لهذه النفسيات الخيرة حسن صنيعها فيقول: ﴿ليسوا سواء، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات. وأولئك من الصالحين، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين، إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً. وأولئك

أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[1].

وكذلك تقول آية من سورة آل عمران (الآية ١٩٩): ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم ان الله سريع الحساب﴾.

ومن هذا ما جاء في سورة النساء (الآية ١٦٢): ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾.

«وإذا كانت آيات عدة قد حملت على الأحبار والربانيين وأولي العلم من اليهود، لكتمهم الحق، وتدليسهم بالتوراة وحلف الايمان، وإلباسهم الحق بالباطل، وبيعهم دينهم وعلمهم وعهدهم بأعراض الدنيا، فان في هذه الآيات دليلاً واضحاً على أن فريقاً من علماء اليهود قد أبى عليه علمه ودينه أن يندمج فيما تورط به سائرهم فينكر النبوة، ويكابر في

(١) آل عمران الآيات من ١١٣ ـ ١١٦.

صدق الدعوة النبوية والتنزيل القرآني، فآمن بهما ولم يعبأ بموقف قومه وزملائه.

«هذا، ومن الحق أن ننبه على ما في هذه الاستثناءات القرآنية من عبرة بالغة، ومثل رائع لتسجيل الحسنة لصاحبها والتنويه بالمحسن لإحسانه، وذكر الفضل لذويه، مما يظل مصدر تلقين قرآني جليل الشأن ويدحض حجة المغرضين»(١).

(١) من كتاب سيرة الرسول ص ١٣٠ جـ ٢.

